سوبار فوحا

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك (ISBN) : 978-9947-79-506-4

اسم العمل: سوبار فوحا
اسم المؤلف: تقي الدّين بوسكين
تصميم الغلاف: أكرم قواسمية
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: أحمد منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 033 85 65 75 / 0666 76 28 50

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

تقي الدّين بوسكين

سُوبَار فُوجَا

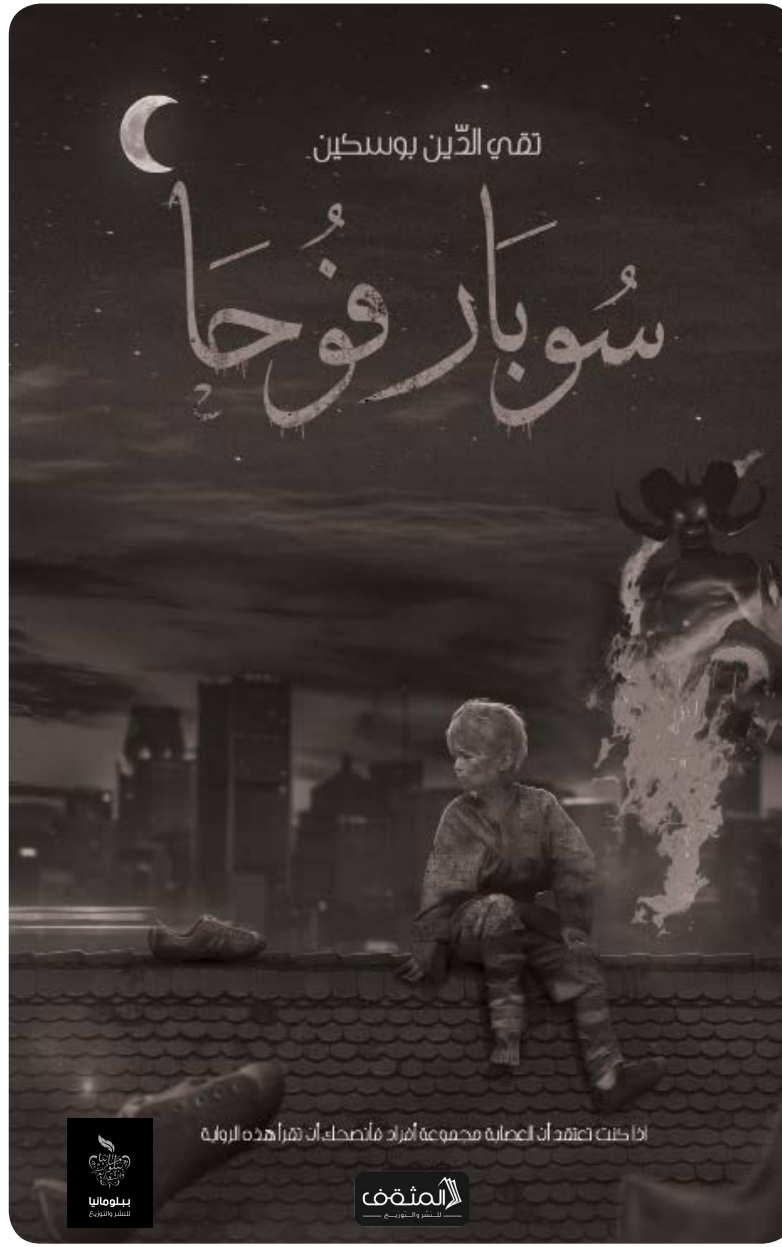

إذا كنت تعتقد أن العصابة مجموعة أشرار فأنصحك أن تقرأ هذه الرواية

بيلومانيا
للنشر والتوزيع

المثقف
للنشر والتوزيع

الإهداء

■ إلى زعماء العالم المؤمنين قبل كل شيء، بأنّنا أمم و قبائل خلقت لتتعارف.

إلى الجزائريين النافذين في هذا العالم.

■ و إلى الجزائريين بثمان و أربعين ولاية، الحالمين ببناء دولة لا تغيب عنها الشمس.

■ و إلى سكان بلديات:

رمضان جمال، عين قشرة، القل، عزابة، حروش، المرسى، تمالوس، أم الطوب، سيدي مزغيش، سكيكدة، فلفلة، الولجة بلبلوط، كركرة، صالح بوالشعور،بين الويدان، الشرايع، عين شرشار، أمجازالدشيش، بن عزوز، الحدائق، حمادي كرومة، الزيتونة، بني زيد، وادي زهور، بكوش لخضر، بني بشير، عين بوزيان، بني ولبان، عين زويت، حجر مفروش، خناق مايون، السبت، قنواع، لغدير، زردازة، ولاد حبابة، جندل، بوشطاطة.

التّرتيبات قائمة على قدم و ساق، لا ندري لِمَ تمّ تقديم الاحتفالات هذه السّنة؟ جانفي، فيفري...لا يهمّ، الأهم أن نعيق فكر هذا الوافد الجديد. كنت لأعدّ لك تقريرا مفصّلا، إلّا أنّ دعوة وزارة الخارجية المستعجلة لم تسمح بذلك، نحن في طريقنا إلى «الإستاد» لمشاهدة عرضٍ فريدٍ من نوعه... اللابتوب الذي بين يديك يحوي كرونولوجيا السّنوات السّابقة، فبعد الحراك بخمس سنوات، تمّ توقيع مرسوم إنشاء عاصمة إقتصادية في قلب الصّحراء، فتحرّكت الرّمال و معها الجمال بعيدا عن الأطر التي نبغي. و في الذّكرى السّابعة، تمّ حظر شراء الغاز عن هذه الدّولة بإيعاز منا و من شركائنا، رُفضت جلّ طلبات القروض، فقامت نسوة إحدى المدن العتيقة بإيداع مصوغاتهنّ هبةً لتعزيز أركان الدّيمقراطية النّاشئة. تمّ من خلالها جمعُ مبلغٍ ضخمٍ، مثّل حجر أساس بناء أوّل مستشفى لسرطان الأطفال. و بعدها عُمّمت المبادرة على باقي الولايات، فشُفي الكثير منهم، و دخلت النّسوة تاريخ الانسانيّة.

أمّا «ستاديوم برّاقي» الذي نتوجّه إليه الآن ، فقد غُيّر اِسمه إلى «ستاديوم الحراك»...في نظر الكثيرين مشروع فاشل لا يصلح إلاّ لمثل هكذا اِحتفائيّات، فالشّباب هنا لم يعد مولعًا بكرة القدم.

و على الصّعيد المؤسّساتي، عمدت أجهزتهم السّيادية على تفكيك العديد من الخلايا التي عملت سنوات لصالحنا، فتأجّلت عودتنا مرةً أخرى.

الأسبوع الماضي ـ كما تعلم ـ إستثنائي، فقد تمّ القضاء على «رينات الجزائرية» التي شكّل الانتقام منها كينونة هذا الشّعب، الجثّة التي تمّ عرضها عبر وسائل الإعلام تعود لها بالتّأكيد.

أنت سفير دولة مارقة زمن تلك الأحداث، تجنّب العدسات، على الأرجح أنّ الرّئيس الشّاب بصدد إطلاع شعبه على تفاصيل ظلّت طيّ الكتمان طيلة قرون، كيف؟ ذلك ما لم نستطع الإلمام به؟

و مربط الفرس أنّنا نختلف عن بقيّة زملائنا في السّلك الدّبلوماسي إذ نشتغل في بلدٍ قارة، إن إمتلكت أعماقه، إمتلكت ثلث العالم.

اليوم عودتنا...أمرٌ أكيد، ما دام الكثير ممّن طالبوا برحيل أتباعنا يعتقدون أنّ العصابة أفراد! كنت صغيرا حين زُجّ بأبي في السّجن، لم أنسَ سبابهم وسخريتهم ، كانت لحظات مؤلمة...كلمات ردّدها الملحق الثّقافي في أذن السّفير الجديد، قبل أن يركن سيّارة «البيجو» السّوداء في مرآب الإستاد. هنالك في ملعب الحراك، تتوجّه الأنظار صوب الباب الزّجاجيّ للمنصّة الشّرفية، لتلتقط العدسات بسماته، نسماته، خطواته التي لا تختلف عن عوامّ شعبه، (الخمري) .كما يحلو لهم تسميته .ببدلته العفوية، يمازح من حوله و قميصه تداعبه الرّياح، فتدبّ أهازيج الجماهير منشدة (ملعب الحراك، فخور بأن يراك !)

في حين طائرات 22 فيفري المقاتلة محلّيّة الصّنع، تملأ سماء الملعب، في منظر تزاوجت فيه تضحيات الماضي، ورهانات المستقبل التي اِغتالت ريبوسومات الكسل و الشّيفون و وساطات التّليفون، و أُعدم لأجلها فكر الغال و معارف العمّ و الخال.

في الجهة المقابلة للمنصّة، يُسجّل اللّوح الإلكتروني من حين لآخر طرائف صادرة من جماهير فسيفسائيّة، دفع بها الحراك إلى نور الأخوّة، بعد أن كانت بلايستايشن في يد الخلّاطة.

أمّا خارج الملعب فقلوب الملايين معلّقة بذلك المنبر الخشبيّ الذي سيعتليه الرّئيس... شجن هنا و ترقّب هناك.

رئيس الجمهورية بيده ملفّات كثيرة (صناعة العُصب، الولاءات، و قصّة غامضة لصحفيّ يدعى أودان تتحدث عن صبيّ اِسمه والو)، موت رينات الجزائريّة عربيدة الحراك مِلفٌّ عظيم أيضا، قد يتمّ نبشه في ستاديوم الحراك التي ناضلتْ لإجهاضه، هذا ما أراد المخرج أن يودعه أذهان المتتبّعين في إحدى الصّور الملتقطة.

بسرعة دقّت ساعة الحقيقة، أُطفئت الأنوار، أخرجت الجماهير هواتفها الذّكية، و اِسترسل الرّئيس بلغة الضّاد مُسْدِلا السّتار على وثائق اِستخباريّة عالية الدّقة أرْسَلها العميل (فاي) قبل أن يتمّ اِكتشافه و تصفيته، وثائق تحمل تسجيلات عن قرب إحكام ثُلّة من الخبثاء قبضتهم على مصير هذا العالم.

و تشير إلى أنّه منذ أن وضع النّاقمون على حكم الملك «سليمان» أيديهم على كتب السّحرو «الكابالا»، أنشِئ ما أطلق عليها «هالة الكراهية العظمى»، وكانت التّفسير الوحيد لزلزال المشاعر العالمي الذي ضرب الجميع، ما عدا أولئك؟

وتضيف أيضا، أنّه وفي الثّاني عشر من ربيع الأول من عام الفيل، حدث في الأرض أمرٌ عظيم... أمرٌ جلل...»بزوغ نجم أحمد»، و مع تواتر الملاحم البطوليّة، أفرزت الطّبيعة ما عرف بأختام النّضال أو الدّرع المنيع.

فماذا لو بلغ أولئك الياء، و حوصر موطننا بإيعاز قوى تتعدّى المعطى الطّبيعي للبشر؟ كيف الخلاص؟ وما الذي سنفعله؟

ما الكارثة المرتقبة التي سيجلبها الرّجل المقنّع؟ وهل ستتحقّق نبوءة ظهور ذلك الثّوري الذي سيخوض إختبارًا عظيما، الشّخص الذي سيجلب للعالم إستقرارًا كبيرًا؟

هكذا أراد الرّئيس الجديد أن يستهلّ عهدته، قول الحقيقة بأبعادها العميقة، فإمّا أن يتشارك الجميع النّجاة و إمّا أن ... و لكن أي قصّة سيرويها فخامته؟

والو

والو صبيّ متشرّد، فاقمت نوباتُ صَرَعِهِ حالتَه المُزرية، يسكن بيتا خاليًا... شاحب الوجه، أبيض الشّفاه، بنيّ الشّعر، لا أحد من سكّان المدينة الهرمة أبدى نيّةً لتبنّيه، ورغم صلة الصّداقة التي ربطته بوالده «هوّاري التيكر» فقد تمّ رفض طلبه.

لـــمـــاذا ؟

سؤال أرّق عميد الشّرطة، فقد عجزت نياشين كتفيه عن اِستيعاب ذلك وما عادت البدلة الزّرقاء تستهويه، فألقى بها على الأريكة البُنّيّة المخصّصة للضّيوف و تقدّم خطوات نحو تلك النافذة المُطلّة على كبرى قمامات المدينة، ليشاهده في ذلك الجو الممطر الكئيب، منتعلا حذاءً بلاستيكيًّا ملطّخا بالطين... حسرة المنظر ألهبت نار جسده، سَارعت نبضات قلبه وما عادت أقراص «دولبران و أموكسيلين» قادرة على اِحتواء انفعالاته، فاليوم الذّكرى الخامسة لاستشهاد هوّاري التّيكر الذي أُريد لقضيّته أن تظلّ حبيسة الأدراج...

ذكرى اِعتاد على إحيائها رفقة صديقه الذي لم يتحسّس تواجده، ولا حتى كومة الدّخان المنبعث من سيجارته الكولومبيّة.

لقد توقّف المطر، و انصرف اِبن الهواري، بهذه الكلمات قطع مدير الملجأ خلُوته، لينتقلا إلى ذلك المقهى أين جلسا عند إحدى الطّاولات المهترئة التي شهدت محطّات كثيرة في عمله الشُّرَطي، حيث أعادت لهما الذّكريات تلك العشرية السّوداء الظّالمة.

فعلى اِمتداد سبعة أعوام، سيطر الإنتقام على العقول و الأفئدة، مُمَزّقًا روابط الإخاء التي شدّ عَضُدها تضحيات الملايين في سبيل اِستقلال هذا الوطن، دون أن تُدرِك الأطراف المتناحرة بأنّ عصبةً ما قد أطلقت العنان لأحاسيس شيطانيّة أجّجت نواعير التفرقة و الانتقام، و أُزهقت لأجلها مئات الآلاف من الأرواح.

ترقرق عيناه و هي تَرمُق جدران مقهى يَحْوي من هبَّ و دبَّ من لاعبين و نجمات بوتوكس، يحبسها فتأبى، لتتساقط دُموع الحسرة و الوفاء: « إلهي، ليس هذا حال الوطن الذي دفع الشّاف و زوجته حياتهما ثمنًا لأجله».

يُسرّ له صديقه: أوامرُ فوقية تحول بيننا و بين إرث الهوّاري، سنراقبه دون أن نُشعِر أحدا بذلك. فقد أخبر «أودان» عرّاب السّلام عند تأبينيّة «الشّاف» بأنّه قاتل طقوسا غامضة. ما كانت لتُستحضر في وطنٍ متخلّقٍ أهلُه. جثّتُه المُمَزّقة تروي هول ما حدث، لم يكن فِعلًا آدميًّا، كدماتُه تلك مزّقت قلبي، لقد واريته التّراب بيديّ، لا أحبّ أن أتذكّر تلك اللّحظات... دَفعنا ثمنًا باهِضًا لإخماد العشريّة السّوداء و الفضلُ يعود له، و الخوفُ كلّ الخوفِ من تكرار تلك الأحداث، فلا الهوّاري معنا و لا الأختام.

** اِستشهد «هوّاري التّيكر». كما كان يُلقّب. و زوجته بتاريخ «الثاني و العشرين فيفري تسعة وتسعين وتسعمئة وألف» في اليوم الذي ولد فيه اِبنهما، تاركًا فرضيّة عودة تلك المشاعر العدائيّة، تحدٍّ في يد هذا الشّعب.

وبعدها عمّ السّلام أرضَ الشُّهداء، و ملأ اليمام الأبيض السّماء، بيد أنّ تلك الطّقوس الغريبة أو كما لقّبها العارفون «هالة الكراهية»، برزت مرّة أخرى في مناطق متفرّقة من العالم، فأبادت شعوبًا طيّبة عن بكرةِ أبيها، وأضحت و الإنتقام كابوسا و هاجسًا ألجم شعوبًا كثيرة عن قولِ الحقيقة.

لم يختلف الجزائرّيون عن البقيّة، فقد سكنهم الخوف سنين طويلة، غير مدركين سلطان الأختام أو الخصال التي دحر بها التّيكر الظّلمات، ذلك الإرث الذّي أخفاه في مكان ما ليوم عصيب قد تحتاجه الأجيال القادمة.

اِنتهت جلسة الشّاي...

تعاقبت بعدها السّنون و تداولت الحكومات الواحدة تلوى الأخرى، أُغلق ذلك المقهى، و تمّ سجن مدير الملجأ و إبعاد كل الأوجه التي عهد لها هواري التّيكر برعاية اِبنه «والو»، أو بالأحرى التي ظلّت وفيّة لرموز جفّت عند عتباتها القراطيس...

في منزل مهجور ذي ثلاث غرف نشأ الصّبي والو، تلقّه الرّوائح الكريهة، فقد فَصلت مؤسّسة المياه العدّاد، و أخذت البلدية جلّ الأثاث، ولم يعد ساعي البريد يجلب له تلك الدنانير (تقاعد والده) الذي لم يره قط.

و لعلّه لم يعد بحاجة إليها، فقد أَلِف حياة القمامة، أكل من الفتات...، من المرمي...، و من الأطعمة منتهية الصلاحيّة، فلم يترك له هوّاري التّيكر سوى دجاجتين كسولتين، بالكاد تبيضان له بيضتين في الأسبوع، فيُمضي سويعات طوال في اِنتظار قيام إحداهما من جلسة المبيض، ليسلقها على غطاء دلوٍ قصديريٍّ متآكلٍ.

وكم إشتاق أجواء المرح في الملعب الجواريّ الملاصق لمنزله...لا يريد النّزول، فقد تمّ طرده بكلمات نابية الأسبوع الماضي.

كان الجُزء الكَسِر في النافذة المطلّة على الملعب يُسْمِعه أهازيج اللّعب، فيُطِلّ بعين وجسة لألّا يُرى، يأخذه الحماس و الفرجة ليجد نفسه جالسًا على حافّة النّافذة، سرعان ما يستفيق مذعورًا على دلْوِ مياه عكرة تلقيه عليه جارته العجوز، فتُدوّي القهقهات تصاحبها كلمات جارحة، مفادُها أنّ نحس المنحوس والُوقد زال.

يُغلق النافذة، ويُمضي ما تبقّى من سويعات متحسّرا على لباسه الرّثِّ المبلّل، الذي لم تنفع معه محاولات النّفخ بهواء فمه السّاخن القادم من بطنه الخاوية.

في تلك المدينة الزّحمة بالسّيارات الفارهة و محلّات «الفاست فود»، يُنظر للشّمس على أنّها كوكب الأغنياء، و حين تحمرّ يُطلّ الهلال فتغادر شاحنات البلدية حظائرها...يمكنه النّزول لإلتقاط ما تجود به القمامة، فتلك أولى ليالي رمضان.

قبلها بسنة، حين قرّرت البلديّة أن تُسقط إسمه من قفّة المعوزّين لتمنحها أحد التّجار، بكى و إشتكى لإمام المسجد الذي لم يُعِد له ما له. اليوم...النّبشُ في القمامة لم يَعُدْ عبئا يُثقل كاهله، فقد إعتاد على سماع الأصوات الهادرة لأمعائه تدُكّ مضجعه.

وليست مشكلته كون البلدية قد نقلت حاوية القمامة بعيدا خارج الحيّ، ولا جَرُّ الأقدام إلى هناك معضلة بالنّسبة له، بقدر النّدوب التي يسبّبها له حذاء(**سوبارفوحا**)المتهالك بالأسلاك.

لكنّه مضطرّ للقيام بذلك، إن لم يكن لأجله فللكلاب الضّالة التي ألفته، أداركتفه للباب، نظر إليه متأسّفا: «أنت باب مسنّ، لا أحد سيشتريك» ثم اِقتفى آثار اللّيل و أسلاك الحذاء البلاستيكي المغروزة من ميمنته إلى ميسرته تُنْشد سيمفونياتها على أصابعه الصّغيرة، لم يكن يصغِ لآلامه ففي قلبه جروح أعمق.

لقد أعياه المشي و التّنقيب بين الأرصفة، في الواقع لم يكن على علم بأنّ توقيت جمع القمامة في رمضان مختلف عن الإفطار، الأوعية الخضراء المكتوب عليها (بوبالة) خاوية، لا أكل هذه الليلة...، فعاد خائبا خيبة الباب الخشبيِّ المتّكئ على الإطار الهرم لمدخل الشّقة.

تحسّس جوع الكلاب التي ظلّت تنتظره...لم يجلب شيئا...نكس رأسه، دنت منه، داعبت جراحه بألسنتها، فلملم قدميه و نام بين أحضانها.

في الصّباح يمرّ سائق الحافلة ليصطحب معه أبناء الحيّ إلى المدرسة متجاهلا إيّاه، هناك أماكن فارغة، لم يدفع اِشتراك النّقل، وعليه المشي مسافة مضنية مزّقت جواربه.

كذلك لم تكن المدرسة بتلك القداسة التي أخبره عنها «عباس» المنضم حديثا لعالم التسوّل، و الذي قيل أنّ الجنون ساق به إلى الشّوارع بعدما خانته زوجته، و فرّت رفقة تلميذ لها في الفصل...كانت أكثر الأمكنة اِزدراءً له :

- ألا تعرفونه؟ إنّه صبيّ وسخ يرتدي حذاء سوبار فوحا، لا يجلب معه اللّمجة، و يسطو على أكل غيره، أ لم تره كيف ينبش المزابل؟

- صاحب الكومة البنّية يدرس معنا في القسم؟

- عليك أن تغيّر إبنك من ذلك الصّف، كما فعل الجيران.

والُو معناه أنّك لاشيء، خُرطي، لا تخيفنا كلماتك و لا قيمة لمساهماتك، هو إسم نأى به بعيدا عن المجتمع، يعي ذلك، ولكن ما يَحُزُّ في نفسه ليس الإسم بقدر الأسئلة الملحّة التي تنتابه: «من يسّمي المواليد؟ يجيب: أولياؤهم» يسأل هو الآخر: «إذًا، كيف لأبي أن يختارلي إسما كهذا؟» تغيب الأجوبة، وحين تغيب يأتيه الصّرع و تتفاقم الأحاسيس المُتْعبة من حوله في تلك المدرسة.

إنتهى الدّرس، في طريق العودة، المقعد الأول بجانب النافذة الزّجاجية لسيّارة المرسديس، جلس بلمختار إبن أحد أثرى العائلات الجزائريّة اليهوديّة المتنكّرة، مستذكرا صور صراخ و تلوّي والُو في الصّف.

على الجانب الآخر من الطّريق المزدوج وسط الإزدحام، كان والُو يجرّ بيمناه حقيبته التّعِبة، في جوٍّ مصيفٍ حارٍّ زادته الأتربة و الحافلات القديمة التي لم تسحبها الولاية نتانة، و على كتفه الأيسر جهاز (شان ستيريو) أسود، يكسوه قميص أبيض معار، و تدنوه أقدام حافية.

في المساء على طاولة العشاء، سأل بلمختار أمّه (رينات) عن عائلة والو، فلم يتلقَّ إجابة تشفي فضوله.

و لعلّ أبرز ما ميّز بلمختار تلك الحادثة!؟ حيث ترجّح التسريبات التي تداولتها بعض القنوات الأجنبية المشرفة على المسابقة الدّولية (الطّفل الذّهبيّ) و التي حصد بلمختار جائزتها الأولى، عن وجود طفل إفريقي ضمن الفريق المشارك، تمكّن من مصادقة فيروس أنجاه من الموت، و أرشده إلى معرفة لغة الفيروسات، لا أحد يدري إن كان هو أم لا؟ ولكنّه طفل متفوّق، ممنوع من السّفر خارج إقليم الدّولة بأوامر فوقية. عمره ستُّ سنوات، حنطيّ البشرة، (فريزي) الشّعر يرتدي الجينز، لا يلتفت لأحد، خلاف والُو الذي سعى بعد أن وعى من خلال الأفلام الكارتونية التي يستوردها موطنه على شاكلة (فادي و البؤساء) بأنّ كراهية الآخرين يمكن تبديدها عن طريق لفت الإنتباه، و تقديم الخدمات التطوعيّة لمن حوله، فعمل على قضاء حوائج العجائز بالمجّان، ذهن سيقان الأشجار المتاخمة للمسجد و حمل أوزانا تفوق سنّه.

ورغم ذلك بقيت صورته على حالها، فإصراره على التّطوّع لم يجلب له الطّمأنينة، كيف لا؟ و قد أزعج إحدى المدارس الفكرية المعروفة بـ: (الخير تاعي، زاد معاي و يموت معاي).

و التي سارعت إلى تحييده... كان ذلك عندما سلب منه دلو الصّباغة في مقهى «لابراج»، حيث حرم من المساهمة في حملات التّطوع، في الواقع طُلب منه أن يظّل والو الاسم و المعنى.

كَسِر الجناح لم يظلم أحدا، يريد فقط أن يعطي إضافة لمجتمع لم يحتضنه كما اِحتضنته القمامة و سلالم العمارة التي حماها والده يوما ما من مجزرة شبيهة بمجزرة «بن طلحة»، اِندثر التّيكر و ترك الأحزان ثقلا على كاهل الصّبي، ومعها الخوف و الجوع و العطش و بعض الأصوات الممزّقة لأمعائه، و صوت آخر... لمن؟ لجارته العجوز التي شُلّت العام الماضي و ما عادت تَقوى على سكب دلو القذارة على رأسه .لكنّ التطوّع لوجه الله حكمة سكنت وجدانه .صعد سلالم العمارة، طرق باب جارته، قبَّلَ يديها التي رمته بمياه القذارة: «شكرا لَكِ أيّتها العمّة، لولا صبّك ذلك الدّلو على شارد مثلي لسقطت من النافذة دون أن أنتبه».

والو...عكف على نقلها من طبيب لآخر، فأعاد لها بذلك حلم المشي من جديد، أمّا بالنّسبة له لا يهمّ، فقد قام بتصليح زجاج النافذة منذ زمن طويل، ولم تعد أصوات الأمس تزعجه.

و تدحرجت السّنين ...

بالنّسبة له زيادة الوزن مؤشّر إيجابي، لم يعد بذلك القصر، و قد أضحى على بعد خطوة من العبور إلى طور المتوسّط، رغم كل الظّروف.

البارحة عثر في إحدى الثّقوب على مفتاح الغرفة الثّالثة، الذي ظلّ يبحث عنه، منذ ألفى نفسه في هذا المنزل.

في دواخله، يأمل أن يجد فيها ولو أثرا لوالديه اللّذين اِقترفا في نظره جريمة بشعة، إذ تركاه فريسة للقلب جلب له الحزن منذ ولادته، و أحاسيس تراوده: «أودّ أن أحاسيهما على كلّ شيء، أجل، لقد آلماني كثيرا، أكثر ... أكثر من أيّ شيء» ليهدأ بعدها :

« كلّا! قد يكونان معذورين، مستعدّ للصّفح عنهما، فلا يجب أن أضيف لفقدانهما، فقدانا آخر».

** لم يكن يعلم ما يريد، ظنّ أنّ عثوره على المفتاح سيريحه من لغط تلك الأسئلة ... تردّد كثيرا، المشكل ليس في الباب بل ما خلفها، تتراءى له لوهلة النّقائص التي اِقترفها فتربكه أنصاف الأجوبة: «سيكون المنظر مقزّزا، الغرفة تقابل حائطا ملطّخا ببقع الزّيت وبقايا الأطعمة، لا يوجد ماء، هنالك رداء، رداء نوم ولا ضير في أن يخفي به تلك الأوبئة» لا يريد أن يُري والديه جوانبه السّيئة، رغم مرور سنوات على رحيلهما، في حين رسم لوالده صورا ليست كالصّور.

لكنّهما ميّتان. يطمئن نفسه. ولا يمكنهما رؤية قذارة المنزل، ولو أمكنها لكان أولى بهما الإلتفات إليه بدل الحائط. يكمل مستطردا :

«هذا المفتاح يفتح الأبواب، لا يعيد الأحباب ».

أداره مرّة، مرّتين، ثلاث دون جدوى، اِرتبك، أعاد نزع الغطاء، و أمضى اللّيل في تنظيف الحائط، فغدًا لا توجد مدرسة.

«القمامة»، «الزبل»، «لخراوات» سمّها كما شئت، في النّهاية هي الملاذ الوحيد له ولكثيرٍ من الذين اِلتحقوا به في تلك البلدة.

في قرارة نفسه حياة التّشرد ليست سيّئة كما يظنّ البعض، و لا خطيئة تُدخل المتشرّد النّار، فالكثير من المتشرّدين مسالمون، يتحاشون قدر الإمكان إرباك المجتمع، يسأل نفسه:«هل نحن مزعجون، لتتآمر الدّنيا بأسرها على القمامة، يا رب، ما الذي سيحدث بعد ذلك التكريم ؟». تساؤلات ردّدها قبيل صلاة الجمعة، عند عتبة باب المسجد، على ذلك الدّرج الإسمنتي المزدحم بالمتسوّلين بنسخهم الأصلية و المستنسخة. « الشّيتة» ، لقد تمّ تكريم رئيسي الدّائرة و البلدية مقابل أن يقضيا على مبيت القمامة، الكلاب الضّالة، و المياه التي لا تصل الأفواه ، لا شكّ أنّ الوجه الشّاحب للإمام من على المنبر السّمح، يوحي بأنّ شيئا من ذلك لم يتحقّق. «الحمد لله الذي رحم المساكين، إذ شلّ أيدي السّادة عن قوت الغلابة» هي دعوة إحدى المسّنات التي أسمعها جهاز المكبّر، اِستهجان الإمام من تواجدها الدّائم قُبال المسجد، و بين دعاء التخَّمِ بالدّاخل و دعاء المساكين في الخارج، اِنتهت الصّلاة فغادر الجميع، فريق إلى النّار، فريق إلى الجنّة، و فريق لم يَحْسم أمْرَهُ بعد.

غادر الجميع جامع الصّلاة و الرّحمة، إلى أسواق لا تعرف رحمة، لا يمكنه أن يشتغل، القانون يمنع ذلك و لا يمكنه أن يطلب المعونة فالنّاس تناست الانفاق كذلك، لقد اِهتدى إلى طريقة ذكيّة، كتب حديثا شريفا في قصاصات تسوّل به حقه: «اِرحموا من في الأرض يرحمكم من في السّماء». قصاصة، قصاصتان لا شيء تغيّر، فللعام الثّاني تواليا، يُقصى

من الِالتحاق بالمطعم المدرسي الذي يسهر على تنظيفه، (المدير) يأكل و (الكوميسار) يأكل و...

«يا لها من عصابة، لابدّ من...؟ ولكن على من؟ على المدير؟ على من فوقه؟ أو على من تحته؟» لطم وجهه بعدما تفطّن لشيطانه المتآمر الذي أراه بأنّ الكلّ عصابة، نهى التّفكيرعن التّغييروسارمبتهجا رغمًا عنه إلى قدر مجهول: «اِرفع رأسك يا بّا، ارفع رأسك يا بّا؟ ارفع، ارفع...»

قدرٌ اِستحى من فقره، من نوبات صرعه فناوله المفتاح ثانية، مفتاح الغرفة الثالثة، يريد منه أن يُعيد الكرّة لعلّ ما بداخلها يزيل عنه الأحاسيس المُرّة؟ هو الآخر يوّد أن يطّلع على قسيمة ميلاده، لا شكّ من تواجدها في إحدى مذكّرات والده...تلك غرفته.

تبادرت إلى ذهنه أسماء كثيرة: «ما رأيك في اِسم صالح؟ لديهم حانوت حلويات و يحبّه الجميع، أو عبد الحميد بن باديس علاّمة لا يكسوه تدليس، أو...أوبلمختار؟» لكن ذلك محض أمنيات يراجع نفسه: «بلمختار ليس غنيّا و حسب، بل ذكيٌّ وماهرٌ في كلّ شيء، الأفضل أن أراجع دروسي المتراكمة، فأنا لا شيء و قد ألفت ذلك ».

في الواقع لم يكن المنبوذ الوحيد، فقد جسّد فئة كبيرة من مجتمعٍ متهالكٍ، غادر عشرية سوداء أزهقت الأرواح، و خلّفت اليتامى، المغتصبات، المعطوبين، و المشطوبين أولي الأعلاف، طبقا شهيّا لأصحاب الأكتاف.

وليس النّبش في القمامة سببا وجيها ليضطهده المجتمع، فقد كان لكلّ طبقة قمامة تنبشها; نبش للحواس مارسه جوعى الجنس في الغرف الخلفية للدّكاكين، آخرون نبشوا جيوب الخلق بالقوانين و السّكاكين، وآخرون باعوا الدّين بصفقات الكوكايين.

كان ذلك حال البلدة، المدينة، وسائر أرجاء الوطن بأغنياءه بمتشرّديه، بمفكّريه بجهلته، برؤسائه بمرؤوسيه، الفقر، الجشع، المصلحة وأصحاب الوسائط من فئة « بن عمّيس».

كانت سنة عشر وألفين مغايرة تماما لما عاشه «لبحابَح» زمن البحبوحة، كُلّب الزّيت و ثُعلب السّكر و اِستفحل الفقر، فاِزداد عدد المتشرّدين، واِحتشمت العفّةُ لأجل القُفّةِ، ووقعت صدامات عنيفة بين فقراء الأمس و الحين، فانتشرت السّرقة بتعدّد، و هتك الأصول بلا تردّد... تسلّلت خلالها الأفكار السّوداء، ولم يكن ذلك محض صدفة، كما اِعتقد البعض ممّن يحسبون أنّ كلّ العالم يتعاطى مسحوق «النفّة» المُبْهِجِ.

و هكذا أصبح لكل فكرة خبيثة عصابة، فما الذي يحاك لهذا الوطن؟ ومن يقف خلف ذلك؟... أكيد أنّ أصدقاء هذا البلد قليل، وعليه أن يحترز.

بعيدا في مانشستر شمال غرب إنكلترا ، يعمل أودان. أحد أكثر الجزائريين المسيحيّين نفوذا في لوبي الصّحافة. على تتبع أخبار موطنه بحذر شديد.

في سوق العقار الموجّه لشمال اِفريقيا بجريدة أفريكا دايلي، كان فريق مخلتط الجنسيات ينهي معاملاته رفقة المسؤول التجاري لعلامة «س»

العقارية، بالتّوازي كانت قائمة المتوجّهين إلى هناك تصل السّيد أودان المتوجّس من تلك التحركات.

أكثر ما لفت اِنتباه الصّحفي اِنتماء تلك الجنسيات إلى منظمة فكرية غامضة تدعى «الكابالا»، و اِستنادا إلى الكمّ القليل من المعلومات المتداولة، فالكابالا مجموعة من النّصوص اليهوديّة السّحرية، أعطيت للإنسان عن طريق التّواصل النّفسي، مع الملك الهابط من السّماء «رازيل» حسب الإعتقاد اليهوديّ.

يعمل أودان منذ أربع سنوات رفقة شقّ مسيحي مناهض للهيمنة الصّهيونيّة داخل المخابرات البريطانية، وقد ساعده في ذلك اِشتغاله في موطنه الأم مطلع التّسعينات ضمن فريق خاصٍّ، تتبّع منظّمات ونوادٍ مشبوهة، زلزل فكرها المشاعر وأزهق الأرواح... كما أن الفاتيكان وضع تحت تصرّفه وثائق نادرة عن العهد القديم، نصرة للكنيسة الكاثوليكية الكلاسيكية التي يريد الحداثيّون تقليمها.

في الحقيقة كان موطنه «ألجيريا» أكثر ما يشغل باله، منزله في وهران و كنيسة سانتا كروز، لقد اِستشهد والده في حرب التّحرير، ولم يرَ أمّه التي توفّيت في سجن سركاجي وتركته عند خاله بتلمسان.

بالنّسبة لألجيريا، الجوّ لم يكن على ما يرام، فالعلاقات المشبوهة على المستوى السّياسي و المالي أخذت منحًا تصاعديًّا، اِرتقى خلالها الخطاب المجهول في إحدى أكثر الطّقوس غموضا في تاريخ الحكم.

كانت أنظار منظّمة الكابالا مصوّبة إلى شمال إفريقيا كوعاء سهل لبثّ الكراهية، وهي التي نشطت من قبل في سرّية تامّة بجنوب إحدى الدّول المجاورة، حيث تؤكّد المعلومات الإستخبارية المتبادلة على أنّ الكابالّيين يشتغلون أساسا على نشر ثقافة الإعتداء على القُصّر، إذ تمّ التوصّل إلى أنّ الكثير من ثغرات جدران المعابد، تُستخدَم من قِبَل الحاخامات لممارسة اللّواط على الصّبية في طقوس عاهرة، يتم خلالها إستدعاء الملك «رازيل» عند الذّروة الجنسيّة، أو ما عرف في العشريّة السّوداء بهالة الكراهية العظمى، وتُنهي الوثيقة الإستخباريّة إستعلامها بتساؤلات عديدة :«لقد واجهت دولتكم الشّقيقة هالة مظلمة إبّان التّسعينات، لا نعلم إن كانت ذاتها الملك رازيل أم لا؟ ولكنّ يهودًا معتدلين ممّن يؤمنون بالوطن، يوصون بعدم إحتقار هكذا معلومات، خاصّة وقد إتّضح أنّ الكثير من العلماء أوعية هذا الكيان الخبيث، ويشير هؤلاء اليهود إلى تواجد شخص نافذ لديكم، بإمكانه لعب دور كبير في شلّ هكذا تحرّكات».

إنتهت الإرساليّة... وقد كان يقصد بالشّخص النافذ، العميل«فاي»، أقوى عميل إستخباراتي عرفته الدّول المطلّة على السّاحل.

في مدينة عنّابة الشّرقية، كان أحد الأوربيين الوافدين من بريطانيا قد إستطاع بسهولة النّفخ في أكثر الأفكار المحرّمة بيولوجيّا، عبر صنع إمبراطورية أخطبوطية من الشّواذ، بحثا عن المتعة ، المال وعن شخص مرجوٍّ لإقامة الطّقوس، أشير له بالحرف «باء»؟

في تلمسان بالغرب الجزائري يتواجد والُو رفقة عبّاس، الذي سعى عبر وساطات متعدّدة كي ينهي مرحلة البؤس التي يعيشها الصّبي، وقد تمّ ذلك من خلال حصول أحد الأثرياء الغرباء عن البلدة على الموافقة بتبني والُو، وما هي سوى ليلة أو ليلتين حتى تراءى التّيكر لعباس مصفرّ الوجه في المنام، مذكّرا إيّاه بتلك الوصيّة: «عبّاس، قد أفارق الحياة في أيّة لحظة، لذا أرجو أن ترعى مولودي القادم ريثما تتاح الفرصة للمعلّم أودان بالعودة».

تفطّن عبّاس من خلال تلك الرّؤيا، إلى أنّ هنالك أذًى كبيرا يدنو من الصبي، فراسل أودان ببريطانيا وأخفى والو عن الأنظار طيلة ثلاثة أشهر... وفي ذكرى يوم الميلاد; ميلاد والُو، شاءت الأقدار أن يلتحق عبّاس هو الآخر بهوّاري التّيكر كبقيّة زملائه ...وبين هذا وذاك اِختفى الرّجل الثّري عن السّاحة.

تمّ العثور على رأس الضّحية(عباس) دون بقيّة أعضائه، ملقًا في الفناء، غارقا في الدّماء، يعلوه مقود درّاجة هوائيّة، وتمّ العثور أيضا على معطف مميّز تابع لإحدى الفرق المختومة في سجلّ أسرار هذه الأمة.

وفي الغرفة المقابلة لمسرح الجريمة، عُثر على الصّبي والُو ممزّق الثياب، في حالة متقدّمة من الذّعر.

لم تكن جريمة اِنتقامية من طرف رجال المافيا كتلك التي أَلِفها منتسبوا جهاز الأمن، فلا أحد أساسا على دراية بأنّ عبّاس عميد شرطة، وبغضّ النّظر على توقيتها الذي صادف الذّكرى الحادية عشر لميلاد والُو، فإنّ

المحقّقين الذين توصّلوا إلى كون الدّراجة الهوائية مجرّد هديّة عيد الميلاد، لفت اِنتباههم ذلك المعطف الموسوم بتلك الرّسومات أو الأختام، فمِمّا لا شكّ فيه أنّ الأعضاء الستّة الذين شكّلوا يوما ما هذه الفرقة السرّية، قد أبيدوا مطلع الألفية، فما الذي يعنيه تواجد ذلك المعطف؟

في مختبر التحاليل ببوكاوي يسهر الباحثون على تحليل بيانات معطف الأختام، حيث يُظهر مخطط (الدّياغرام) بعضّ الأصول التي يمتدّ إليها هذا المعطف، فهو فكرة جزائري يُدعى « أودان»، حُجبت معلوماته الشّخصية من البرنامج الوطني للتحرّي.

تعمل «لبنى» منذ خمسٍ و ثلاثين سنة في شبّاك المواليد، و في ردّها على المراسلة الواردة من المختبر، أفادت بعدم تسجيل اِسم كهذا منذ اِلتحاقها بهذه المصلحة، إلّا أنّها أشارت بأنّها سمعت قصصا من زميلاتها اللّاتي تقدّمنها خبرة، عن غلام مسيحيّ تعرّض لمتابعات قضائية على خلفيّة تعامله باسم غير المدوّن في شهادة ميلاده، شبيه بـ: (أودان).

في الطّابق الثّالث للمختبر، الرّواق الثّاني، مقابل المصعد، يتواجد مكتب الكولونال(سامي)، النّقيب(نورسين).

تميل النّقيب المتدلية خصلات شعرها إلى فرضيّة تطابق اِسم أودان و ذلك الصّحفي الأونكلو- جزائري الشهير، الذي دوّن مذكّرات (العقيد) و ملوكا عديدين، و اِستنادا إلى إحدى كتبه المتداولة التي تناولت هذه القضيّة، فالمعطف لم يكن فكرة، بل نبوءة تلقّاها هذا الشّخص، أخاطته

مجاهدة تُدعى «حسناء»، وحمل كتابات ووصايا حاربت السّحر وقيّدت الشّياطين.

في حين تتحدّث الأضواء المنبعثة من تلك الكلمات المنقوشة على المعطف عن ستة أختام راديوميّة موزّعة كالتالي: ختم المحبّة، ختم الأخوّة، ختم الشّجاعة، ختم الإيمان، ختم الحراك، ووسط هذه الأختام برزت قوّة الختم الذي تميّزبه الهوّاري (ختم النّضال الرّابط) ...كانت تلك نتائج البحث.

عند الرّواق المؤدّي إلى قاعة التّحاليل، في الطّابق السّفلي رقم اِثنان تحت الأرض، دبّت فوضى عارمة وسط مُرْتدِياتِ المآزر البيض، علت الصّرخات ودوّت القهقهات.لقد عاد أخيرًا، يا له من رجل غريب، أودان؟.هكذا ناداه الكولونال «سامي» مدير المختبر، الذي ظلّ وطاقمه مندهشين من عفويّة هذا (الشّهير) الذي خالف أعراف الوقار المتداولة.

صحيح، ليس من الضّروري أن تضع نظّارات طبيّة على وجه عابس لتنال التّقدير، وليس المهمّ أن تعتزّ بحبّ الوطن، المهم أن يعتزّ الوطن بحبّك.

لم يكن أودان بتلك الأنفة المبالغ فيها عبر برنامجه الأسبوعي الشّهير «نوادي مشبوهة في بريطانيا»، بل بدى سمحًا رفقة طاقم المختبر، وَجِسًا ممّا يُحاك لوطنه، في حين ظلّت نورسين ترمقه بإعجاب وهي ترى اِختلافه عن بقيّة المسيحيّين الذين لقوا صعوبة في الإندماج مع المجتمع.

تفطّن أودان لإفتتانها به فراح يعزف على أوتار مشاعرها سمفونيّته المعتادة: «أووو، حسناء متواضعة دون مساحيق...هيه...سأبدو أحمقا إن غادرت المكان دون الحصول على رقم هاتفك، أليس كذلك؟».

لم تكن المهتم الوحيد لأمره، الكولونال سامي أيضا...

كولونال سامي: أودان؟ سمعت عنك الكثير من زملائي، فخور برؤيتك أيّها المعلّم، الجهة السّياديّة تسأل إن كنت لازلت تبحث عن ذلك التّابع أو التّلميذ الذي تحدّثت عنه في روايتك «فخامة والو»؟

ترنّح أودان، ثم نظر الى المعطف: لقد مرّ زمن طويل، كنت أظنّه الهوّاري، لكنّه فارق الحياة، ورغم ذلك لن آيس من إيجاده، فمن خلال الجولات التي قمت بها مؤخّرا، يمكنني الجزم بأنّ العالم العربي تنتظره محطّات صعبة، ظهور إحدى المعاطف السّتة بالقرب من فتى لا صلة له بأحداث العشريّة السّوداء، يحمل الكثير من التساؤلات، ليس بحوزتي معلومات دقيقة، على الأرجح أنّ صورة الهوّاري لازالت عالقة في أذهانهم، قوّة النّضال المنشطرة بداخله والتي إستطاع بواسطتها إستئصال المدّ الإرهابي، عن طريق ملء أفئدة الإخوة الذين ظُلِموا وظَلَموا إبّان العشرية السّوداء بعواطف مغايرة لتلك التي غدّاها الإنتقام، لا زالت تؤرق مخيّلتهم، إختفاء تلك القوة في مكان يجهلونه يهدّد كيانهم، تحوّل الأحاسيس إلى طاقة ملموسة ليس أمرا هينًّا، أتفهّم تقاسيم الدّهشة التي تقابلني الآن، أنتم مخبريّون، لذا ستبدو لكم هذه الأشياء منافية للأسس العلميّة، و لكن تخيّل كلبًا مسعورًا

يطاردك، ستجري بسرعة فائقة مختلفة تماما عن المعتاد، ومردّ ذلك أن الجسم يفرز مادّة الأدرينالين عند إحساسه بالخطر، ختم النضال الرّابط، كان وليد مادة كيمائيّة في الجسم تحسّست لسنين (الحقرة)، والظّلم فأفرزت هذا الختم، وعلى هذه الشّاكلة تجلّت باقي الأختام التي تمّ توارثها جيلا بعد جيل.

أنهى أودان حديثه رفقة جيل جديد من الباحثين، أثار إعجابه، ثم اِتّجه صوب منزل زميلته رينات وتحدّثا طويلا، وبدا من خلال حركاته أنّه يطلب منها التّريث، لكنّها أبت وقرّرت اِتّخاذ القرار الصّعب، بعد أن اِئتمنته على صبيّها، وكأنّ شيئا ما سيحدث؟

ورغم أن أودان أبدى إمكانية بلوغ حلول وسط، إلا أنّ الأمر قضي بالنسبة إليها، فاِنصرف واِستردّ والُومن مسكنه المهجور، وفاءً لوصيّة تلميذه (التّيكر).

في طريقهما إلى منزل أودان :

والو: سيدي، هل يمكننا العودة إلى المنزل؟ لاِسترداد شيء ثمين.

وهو كذلك يراقب الصّبيّ يبحث يمينا وشمالا.

والو: لقد وجدته.

أودان: حذاء سوبار فوحا؟

والو: لا تقلق سيّدي، لن أعكّر صفو حياتك بروائحه الكريهة، سأحتفظ به ذكرى في أيّ مكان تختاره في منزلك.

المخضرم أودان، فهم بأنّ الفتى مدين لهذا الحذاء، نظر إليه، تذكّر شيئا ما، ثمّ اِبتسم: جعلتني أحترم هذا الحذاء النّتن، يالك من طفل؟

بعفويّته ووفائه لقطعة البلاستيك، أدرك أودان أنّ المعاناة التي عاشها الصّبي لن تشكّل عقبة أمام المستقبل الغامض الذي ينتظره.

مستقبل ترسمه الأجيال في الأذهان، تتراصّ لأجله جلّ الطوائف كالبنيان...

كلمات سمعها أودان من ذلك الصبي في إحدى السّهرات التي جمعته بوالدته في مقهى كريستال، لم يكن بلمختارنكرة كأترابه، لقد عرف وسط مرتادي المقهى بأنشودته بلاد النور.

نخيل الصحراء شايفنا★★★★★ باطن الأرض عارفنا

قلبك و قلبي والفنا

شدي يدك يا دلالي★★★★★ نطلع بيك للعلالي

بلاد النور على بالي

بلاد النّور أُناديك★★★★★ بأفكاري أُعليك

أيادي الخير تبنيك★★★★★دموع الشّوق تَبكيك

بلاد النّور على بالي

بلاد النّور أُعطيك ★★★★★دم الشّهداء يرويك

دعاء الشّعب يحميك و نَفرح بيك

سأسقيك و أرويك★★★★★بهذه الرّوح أفديك

دروب المجد تحكيك، ما نسمح فيك

بلاد النّور على بالي

كانت آخر مرّة ينشد فيها أغنيته...

بعدها ببضعة أيّام، وقعت تلك الفاجعة التي زلزلت القلوب وغيّرت كلّ شيء في حياة (بلمختار).

...لقد أبادت عائلتها عن بكرة أبيها ثم اِختفت، اِغتالت زوجها، أمّها، أباها وخالها، وتركت اِبنها الأصغر غارقا في الدّماء. من الصّعب تصديق ذلك. من اليوم فصاعدا لا وجود لتلك العائلة، عدا ذلك النّاجي الوحيد.

كلمات سمعها والُو عند ولوجه باب قِسْمِهِ الخاص بتلاميذ السّنة الأولى متوسط، الجميع يتهامس عن بلمختار الذي كان جالسا في مقدّمة الصّف، لقد فقد هو الآخر عائلته وأصبح وحيدا تماما.

بلاد النّور...؟ لقد بدأ ذلك النّور يضمحلّ في قلبه شيئا فشيئا، قلّة من كانوا على علم بأنّ عائلته « بن خريط» يهوديّة الأصل، لذا حين ذاع صيت تلك الحادثة، هجره الجميع و تناسوا كلّ ما قدّمه لهذا الوطن... تغيّر كل شيء.

اِنتهى الدّرس وغادر الجميع القاعة... فوق ذلك الجسر الممتدّ بين المدرسة ومنزل أودان، مرّ والو واضعا يديه خلف رأسه، ألقى نظرة على أولئك الفتية عند تلك البحيرة القابعة أسفل الجسر، فأبصر ذلك المتميّز الملقّب ببلمختار، منطويا جالسا على ركبتيه، فأحسّ لأول مرّة أنّ هنالك من يشابهه نمط الحياة، ولكنّه لم يكن يُدرك بأنّ الجالس في مؤخّرة سيارة الشّرطة، و الذي قام لأجله أودان بإضافة سريرٍ ثانٍ للغرفة، كان بلمختار. أجل فقد كان بلمختار الوافد الجديد، والشّخص الذي سيغيّر حياة والو، اليوم سيحظى كغيره من فتيان البلدة برفيق يُمَرّر له الكرة

و يستقبلها منه، كما الجميع في ذلك الملعب المعشوشب الصّغير. وهكذا باشرت الحياة الجديدة طقوسها، أب قويٌّ، أخ عبقريٌّ...عائلة مُركّبةٌ!؟ لا يهمّ، فبالأمس القريب كان متشرّدا، أسير ثيابه البالية.

أمّا بلمختار فقد مزّق الحنين و الفراق فؤاده. لم يتقبّل مرارة الوحدة. تمّ تشميع منزلهم، رُحّل كل من في الحيّ، و أغلقت المسالك المؤدّية إلى هناك، غابت الطّقوس التي ألفها رفقة والده، وسط معلّم مسيحيّ، وصديق مسلم.

...مرّت سنتان و نصف على قدومه إلى منزل أودان، أكسبتاه معارف حول الدّيانتين الإسلاميّة و المسيحيّة، و إن بدا له أودان ملتزما بالتّعاليم، فوالو «تاع جمعات» كما كان يلقبّه، يقضي جلّ وقته في تفقّد رفقاءه المتشرّدين و تلبية حوائجهم، يسأله ذات جمعة: «إلى أين؟» فيجيبه: «إلى الصّلاة» يبتسم بصوت خافت:«ياله من شخص غريب؟». يأخذه الحنين هو الآخر إلى الصّلاة في صالون منزلهم، فيُلحّ لسابع مرّة على أودان للتّوسّط له لدى المصالح المختصّة، بغرض إستخراج تصريح دخولٍ يتفقّد به ذكرياته.

...منتصف جوان 2013، تمّ منح الصبيّ الموافقة لجلب ما تبقّى من لوازمه. في الطّريق، تتصارع في مخيّلته الذّكريات، يستحضر الجميل منها، فتأبى أن تنأى به عن ما إقرفته والدته تلتفّ به سيّارة الأجرة عند المنعرج الثّالث المؤدّي إلى «درب اليهود» أحد أهم الأحياء في مدينة تلمسان، لتركن إلى جانب منزل اليهوديّة رينات.

كان المنزل جزائري الطّلاء من الخارج يهوديّ الزّينة و النّقوش من الدّاخل، يتوسّطه صالون أقرب إلى معبد منه إلى قاعة اِستقبال، تتناغم فيه تشكيلات زخرفيّة لثابوت العهد القديم ولفائف التّوراة، و شمعدان بائس لم يرَ الأنوار منذ تلك الواقعة.

تقدّم صوبه، أخرج ولاّعة و أشعله، فأنار له الشّمعدان ظلمات الغرفة التي كانت تحجب صورة والده على الحائط، ترقرقت عيناه و أعادت له قطرات الدّمع المنهمرة على خدّيه الإعجاب الكبير الذي كان يكنّه له والده:«رينات، هذا الطفل هبة الرّب، أ ترين كيف يتناغم بسهولة مع تعاليم الكتاب المقدّس، و رغم صغر سنّه فقد تجاوز إخوته كثيرا في فكّ النّصوص القديمة!، سيكون تلموذيا بإمتياز، و الإبن المدّلل لي و للمنظّمة، ما رأيك أن ننقله إلى فرنسا؟».

لم تكن والدته تحبّه كما أحبّت أخاه الأكبر، ولكن في النّهاية اِغتالته هو الآخر. غير بعيد عن منزلهم بدرب اليهود، في الجهة الشّرقية و بالتّحديد في حي قباسة، يقع كنيس يهودي يحيط به سور عال، لا يمكن تجاوزه إلّا عبر باب حديديّ كبير. وداخل السّور بستان فيه أشجار بارزة، تسكنه عائلة عربية مسلمة، وربّ العائلة هو حارس المقبرة والضّريح.

بالقرب من الكنيس، تقع مقبرة لها أيضاً باب حديديّ تظهر عليه نجمة داود، القبور هناك حُفرت عليها كتابات باللغة العبريّة، تحمل أسماء المدفونين فيها، و بجوارها عين ماء يعتبره اليهود مقدّساً.

ولكنّ الأثر الأهم من ذلك كلّه، ضريح الحاخام «أفراييم ألانكاوه»، الذي يُعدّ أحد أهم الحاخامات اليهود، ويبقى الدّخول إلى ذلك المكان ممنوعا دون موافقة مسبقة من الوالي.

هذا ما أسرّ له به والده الذي نظَّر لزيارات كثيرة هنالك، فأخبره أنّه غداة الإستقلال، خُيّر اليهود بين البقاء أو المغادرة رفقة الفرنسيّين، فاختاروا المغادرة.

وفي عام ثلاثة وألفين، إبّان عهد الرّئيس عبد العزيز بوتفليقة، تمّ تفعيل مخطّط بالاتّفاق بين السّلطتين الفرنسيّة والجزائريّة، يقضي بردّ الاعتبار إلى المعابد والمقابر اليهوديّة المتواجدة في الجزائر.

وقد سمحت السّلطات عام خمسة وألفين، إستجابةً لطلب من فرنسا، بفتح موسم الحج لوفود يهوديّة أوروبيّة أُطلق على غالبيّتها «الأقدام السّود»، أتوا رفقة وفود يهوديّة من سكّان شمال أفريقيا، وزاروا عددًا من المواقع التاريخيّة والدّينية بما فيها الحج إلى قبر «أفراييم ألانكاوه». يتذكّر ذلك...فقد تواجد رفقة والده في تلك الزّيارة التي ضمّت أكبر وفد سياحي يهودي يزور الجزائر المستقلّة. حيث تمكنوا خلالها من أداء شعائرهم في حي قباسة داخل المعبد، وإستمرّت زيارتهم ثمانية أيام، إحتفلوا فيها بطقوسهم أمام ضريح الحاخام أفراييم ألانكاوه، فطافوا حوله ورشّوه بالماء والملح.

إلّا أنها اِعتبرت آخر زيارة علنية لهم، إذ أوقفت الجزائر القرار بعد الحرب الإسرائيليّة على غزة . علماً أن سكّان مدينة تلمسان اِمتعضوا ممّا حصل وخرجوا في مسيرات حاشدة، رافضين تكرار الأمر مجدداً، مهدّدين بحرق أملاك اليهود المتبقيّة في المدينة.

لكنّ بلمختار المقرّب من والده، كان على علم بوجود ترتيبات سريّة لزيارة الوفود مجدّدا مطلع إحدى عشر و ألفين، لا يعلم إن تمّ ذلك أم لا؟ لأنّ أخبار اليهود قد اِنقطعت عنه.

ساعتان من الزّمن كانتا كفيلتين لأن تعيدا له ماضٍ مشحونا بالتّناقضات، لكنّه لم يذهب إلى هناك لأجل الذّكريات فحسب، بل كان بحاجة لاِسترداد رقم هاتف السّيد «كوهين» خليل والده و حاخام يهود فرنسا.

«كان ثِقَةَ والده، و الطّفلَ اليهوديّ الوحيد منذ قرابة ثلاثين سنة الذي اِستطاع فكّ شيفرات كثيرة من الكتب القديمة التي كان يضعها والده بين يديه، و قد تمكّن من فَهْمِ معاني كلمات معقّدة، مثّلت أجوبة شيطانيّة لفعائل شيطانيّة في الأصل، و لعلّ فكّه طلاسم مرض السّرطان الذي اِستطعنا بواسطته علاج ملوك ورؤساء يدينون لنا اليوم بالولاء لم يكن صدفة؟ و إنّما وُجد مكتوبا في الكابالا، عَلِمَ معناه و جهلناه نحن، فالشّياطين المدوّنة لكتب السّحر و تلك القابعة داخل الأجساد، لطالما حاولت تغيير البنية الخلويّة للبشر و كسر مناعتها.

قرينٌ داخل جسدك، ما الذي يفعله؟ يأكل البوضة مثلا؟ الأكيد أنّ القرين ينشر المرض الخبيث و يعطي لشيطان آخر وصفة علاج يدوّنها في كتب السّحر، على أن يكون ثمن فكّ تلك الكتابات، الطّقوس الخبيثة التي نقيمها، لذا أكثروا من الطّقوس لنظّل أقوياء و حتى تُبيد الأسقام الأجناس الأخرى».

كان ذلك حديث الحاخام كوهين لثلّة من نبلاء اليهود بباريس، بعد تلقّيه اِتّصالا من بلمختار يطلب فيه مغادرة وطنه، و هكذا بدأت الإستعدادات لإرسال وفد سياحي أوروبي هدفه إسترداد الفتى.

كان أودان في حيرة من أمره، فالعرق اليهوديّ الذي لطالما تغنّى بالاضطهاد يضمّ طوائف عدّة، فأيّ منها سيختار بلمختار؟ المعتدلة المنيبة للرّب الرّاضية بقدر التّيه، أو الإنتقامية التي تركت التّوراة و هُوِست بقوى الشّياطين و المكائد التي تحاك في العالم اللّامرئي؟ كيف له أن يرعى فتيين تضّادُّ لديهما المعتقدات؟

يُسدل رأسه على مقعد السّيارة، و يتذكر أنّه و التيّكر ورينات، كانوا إخوة في هذا الوطن الذي كافحوا من أجله حقبة التّسعينات، فلا دين دون وطن؟ تعيد له النّقاشات السّاخنة قبيل تشكيله فرقة الأختام ذلك التوجّس:

- أودان، أحد أعضاء الفرقة التي ستشكّلها يسمى ميكيبسا، و الأرجح أنّ ميكيبسا ملك نوميديّ يهوديّ الدّيانة... مصيره النّار؟

لم يكن المخاطَب يومها على دراية بأنّ الملك ميكيبسا وجد قبيل ميلاد المسيح عيسى، و أنّ الدّيانة السّماوية السّائدة وقتها كانت اليهوديّة. تغيّر المُخاطِب وظلّ الخِطابُ على شاكلته، فالكثيرون يتحفّظون على ذكر أسماء أبطال جزائريين مسيحيّي المعتقد، متناسين أنّ زمنهم قد سبق حقبة بزوغ دين الدّولة(الإسلام)، فهل تُلغي الدّيانات الأبطال و البطولات؟ وقد يكون حرمان أودان من قيادة تلك الفرقة بالرّغم من أنّها فكرته، راجعٌ إلى كونه مسيحيا في بلدٍ مسلم، بيد أنّه أحبّ ذلك الشّاب، فالهوّاري في نظره إستثنائي، جسّدت أفعاله أوامرو نواهي الدّين الذي إنتمى إليه.

كان أودان على يقين من خلال التّقارير التي ترده بأنّ بعض الأعين، قد بدأت تزوّد جهات خارجية بمعلومات عن تواجد طفلين من سلالة فرقة الأختام بمنزله، فأخبر تلك الجهات التي تقرأ قوله تعالى:

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ»

ثم تكذّب ما ينقله لهم عن جدّيّة المنظّمات المشبوهة في التّواصل مع العالم الآخر، وهم الذين إعتادوا على طلبات غريبة، فتارة يريدون رؤية الرّب، وتارة يتعاملون مباشرة مع الملائكة كهاروت و ماروت.

لم يكن منزل أودان عاديا فقد جمع ديانات ثلاث لربّ واحد أحد، وكانت النّقاشات السّاخنة والقصص التي يرويها بلمختارلوالوتَنّمُ على أنّ والده لقّنه التّوراة وأمورا أخرى...

في الحقيقة، لم يكن بلمختار يبحث من خلال سرد القصص عن إقناع صديقه باليهوديّة كمعتقد يجده في كتب التّوراة الورقية أو على منصّات النث، بل و بدهاء سعى لردّة فعل منه ومن أودان، قد تكشف له ما إذا كان للدّيانتين المسيحيّة و الإسلامية قوى خارقة كتلك التي اِعتنقها أسلافه من قبل؟ قوى تُمكّنه الإنتقام من والدته، فلّما أدرك خلوّهما من ذلك قرّر المغادرة... لم يعد يهمّه لا الوطن و لا الدّين، فالحياة بالنسبة له كانت تلك العائلة. مرّت أشهر من التمحيص عن القوّة، أشهر حسمت قرار بلمختار، و بالقرب من ذلك الجسر الذي تقاطعت فيه ذات يوم نظراتهما، سمع والُو من صديقه كلمات قاسية: «مهما فعلت فلن تفهم شعوري أبدًا، فقد وجدتَ نفسك وحيدًا منذ البداية، لم تمتلك روابط عائلية، لذا لن تعي معنى فقدانها ».

- ما الذي تسعى إليه؟

بلمختار: سألتحق بالمنظّمة، و سأمتثل لتعاليم الكابالا، حتى لو أضطررت للقيام بالطّقوس، فسأتّبع «لوسيفر» و سأقتفي أثر تلك المجرمة في السّاحل؟ في الصّحراء؟ مهما اِبتعدت ستجدني هنالك.

في اليوم الموالي اِختفى بلمختار في ظروف غامضة، و بقيت كلماته عن الانتقام ترنّ في جدران تلك الغرفة التي رعت طفولتهما .

تتبّع أودان خطوات بلمختار، إلّا أنّ آثاره تلاشت عند تخوم الصّحراء، فعاد ليجد والُو حزينا ترقرق عيناه بالدّموع، فقد سيطرت الكراهية على

جسد صديقه المقرّب الذي لا يُعرَف له طريق جرّة، ليس بلمختار وحسب، فمنذ ذلك الحين اِتسعت رقعة الكراهية، ووجد الظّلام أوعية بشرية جديدة، أزهقت الكثير من الأرواح البريئة: «نهال، ميلود، التوأم حواء وآدم، غنيم، محمد بن عمر، و ...». و بدا أنّ للمجرمين مآرب شيطانيّة من اِستهداف طبقة ملائكيّة يهتزّ للمساس بها عرش الرّحمان. أمّا والُو الذي سعى منذ طفولته إلى دَحض العنصريّة تجاه المتشرّدين، فتتراءى له اليوم أطياف متعدّدة من الكراهية، لقد ظنّ لوهلة بأنّ القضاء على الكراهية المتفاقمة بين النّاس أمر يسير، ولكنّ الكلمات التي أسمعه إيّاها بلمختار حول اِمتلاك القوّة، جعلته مرتابًا ممّا يحدث، فسأل معلّمه: لقد تغيّر بلمختار كثيرا منذ تلك الفاجعة، لم يعد يحّن إلى هذا الوطن الذي تغنّى به، لقد عكست أنشودته «بلاد النّور» ذات يوم تتيّمه بهذه الأرض، فما الذي تغيّر؟

أودان: ربما أحسّ بلمختار بأنّ الوطن الذي تغنّى به لم يحمِ عائلته، و أنّ المجتمع المحيط به تغيّر، حَالَ معرفته لأصوله؟

ربّما؟ ـ يُعَقِّب والُو ـ فقد أخبرني بأنه سيقتفي أثر منظمة تدعى الكابالا، و أنه لن يتردّد في إقامة طقوس غريبة تقرّبه من شخص يُدعى «لوسيفر»؟ لم أفهم شيئا ممّا قال؟ فمن هو لوسيفر؟ و ما هي الكابالا؟ و ما الطّقوس التي تحدّث عنها؟

أودان: لقد اِختار بلمختار الإبحار في الظّلمات كأسلافه ممن سيطر عليهم الاِنتقام زمن «التيه»، لأجيبك عن أسئلتك يجب أن تعرف معتقدهم و تطوّره، فلنبدأ من هنالك:

منذ العصور الوسطى، نُظِرَ إلى اليهود على أنّهم عرق من السّحرة، اِستخدم حاخاماتهم تقنيّات «الكاهن شامان» لحثّ الدّول على التغيير من وعيها، و الكابالا هي مجموعة من النّصوص اليهوديّة السّحرية التي أعطيت للإنسان عن طريق التّواصل النّفسي مع الملك الهابط من السّماء «رازيل» الذي خدم إبليس أو لوسيفر حسب معتقدهم.

يمتلك الكاباليون خريطة للعالم تسمّى شجرة «الحياة»، تصف كيفيّة التّواصل مع الأرواح القويّة، و قد ولدت المعلومات السّحرية للكابالا في الأصل ببابل و مصر القديمة، لكنّها لم تصل أوروبا مطبوعة سوى في القرن الثّاني عشر، و تبدو جملا طويلة مشفّرة تحمل بين طيّاتها أوصافا معقّدة عن كرويّة الأرض و العالم الموازي و المادّة و الذّرة.

تلك الأفكار أصبحت عقيدة مشتركة بين علماء الفيزياء الحديثة الذين هوسوا بها، ووجدوا فيها ضالّتهم عبر حلّهم تلك الرّموز التي دوّنتها الشّياطين في شكل شيفرات، أخفت معلومات علميّة معقدة لا تُعطى مفاتيحها إلّا لمن يقدّم الولاء للوسيفر.

و هي مقايضة شبيهة بحادثة تفاحة آدم، لتحصل على الخلود يجب أن تأكل التّفاحة، و ليحصل العلماء على تلك العلوم المحجوبة، وجب عليهم إبداء الولاء للوسيفر كبير الشّياطين، و كلّ يصب في بوثقة عصيان الرّب.

هكذا هي فلسفة الشياطين التي أدركت منذ البداية بأنّ البشر مهووسون بالخلود و القوّة، فالعالم اليهوديّ «ألبرت أينشتاين» لخّص صفحات و صحفات من ذلك الكتاب في خمسة أحرف «$e=mc^2$»، الطّاقة تساوي الكتلة في سرعة الضّوء مربّع» كما أنّ القراءات المشفّرة لتلك الكلمات أوحت لزميله اليهودي «روبرث أبنهايمر» لإبتكار القنبلة النوويّة، بتبجّح سجّل التاريخ مقولته: «اليوم أصْبَحتُ الموتَ ، مدمّر العوالم».

«Now I'm become death the destroyer of worlds.»

ليس هما فحسب فقبلهما نيوتن تصوّف في تلك الدّراسات، و بالأمس الفيزيائي اليهودي «إدوارد تيلر» مخترع القنبلة الهيدروجية المروّعة، يشير بدبلوماسية في إحدى مقالاته، إلى أنّ قواعد إختراعه يمكن إيجادها في النّصوص الأصلية للكابالا القديمة.

إنّ أعظم أسرار الكابالا تعليماتٌ حول قتل البشر بنظرة واحدة تدعى «عين الشّر»، وإسمها السّحري: «إن.ها.رع».ربّما ذلك ما يسعى خلفه بلمختار؟ ففي تسجيل على أسطوانة تعود للواحد و العشرين و تسعمئة و ألف حصلت عليه الجريدة التي كنت أشتغل بها، تمكّن بعض الزّملاء من سماع السّاحر و الكاتب «أليستر كرولي»، و وكيل المخابرات البريطانية سابقا يتحدّثان فيما بينهما، حيث يلقب أليستركرولي نفسه ب«الوحش 666» ويستدعي الملك السّاقط رازيل، وعين الشّر : إن.ها.رع.

كما يُعدّ الجَلد، ودفن الجسد حتى العنق لإعداد السّاحر من خلال الأبواب السّبعة لشجرة الحياة الكاباليّة، إحدى طقوس هذه المنظّمة.

ليس ذلك وحسب، فطقوس الجنس اِستخدمت أيضا من طرف بعض الطّوائف اليهودية، حيث عُثِرَ على العديد من الثّقوب و الثّغرات على الجدران، يستخدمها الحاخامات لممارسة اللّواط، في طقوس عاهرة على شباب وصبية، يتمّ من خلالها اِستدعاء الملك رازيل عند الذّروة الجنسية.

اِختفت هذه النّصوص لفترة زمنّية طويلة، من الذي حجبها؟ أخفاها، لا ندري؟ في النّهاية تمّت كتابتها بواسطة الحاخام الكفيف «إسحاق» جنوب فرنسا في القرن الثّاني عشر، فكانت أوّل مرّة منذ حوالي ست آلاف سنة، يتمّ فيها توثيق هذه التقنيات الشّيطانية على الورق.

كتابات الكابالا للكفيف إسحاق وقعت بين أيدي تسعة من نبلاء فرنسا شكّلوا «فرسان المعبد»، دعوا أنفسهم ساخرين بفرسان المسيح الفقراء، وكانوا أبعد ما يكون عن الفقر.

قاموا بتنصيب أنفسهم عنوة على أنّهم رهبان ليمارسوا نشاطاتهم الشّيطانية في نطاق أوسع، دون دفع الضّرائب وحتى لا يشكّ فيهم الفاتكان.

أعلى الأسرار في الكابالا هي «اللّواط» و «عين الشّر» و اِستدعاء الأرواح، ووضع التّعويذات و التّضحيات الدّموية و اِستدعاء الجن الذين خدموا لوسيفر و أدهشوا فرسان المعبد الفرنسيين.

أدرك فرسان المعبد أنّ الكابالا نشأت في فلسطين، و بمجرّد أن تيقّنوا بأنّها المفتاح الضّائع لقوى سحريّة و روحيّة، خطّطوا بدهاء لحملة صليبية دمويّة على فلسطين، بهدف البحث عن مزيد من القطع الكابالية السّحرية.

وصل فرسان المعبد إلى فلسطين لهدف رئيسٍ وواحد، تمثّل في ثني المسلمين عن الحصول على أيّ معرفة كابالية قد تُفَكَّكُ بها هذه القوة الشّريرة، وقد مارسوا كل تلك الطقوس على سكّان المدينة المقدّسة.

و اعتقدوا بأنّهم عادوا من هناك بالكأس الذّهبي، و هو مجموعة من التّعاليم السّحريّة الفوقيّة، اِعتبرت السّر الأعلى للكابالا، و مترجم الكتابات إلى جزيئات و أرقام و فرضيّات علمية، اِتّحدت أساسا في إضرارها بالبشر.

في الحقيقة، كانت الكأس التي يتحدّثون من خلالها مع لوسيفر.

بعد مئتي سنة من السّحر الكابالي، و الحملات الدّموية و اللّواط، تمّ اِعتقال فرسان المعبد و إعدامهم من طرف الكنيسة، و قد حملت اِعترافات رهبانهم شهادات مقزّزة عن ممارسات جنسيّة غير طبيعية لاِستحضار الأرواح الشّريرة، و وضعها في حيوانات كالقطط.

و أكثر المعلومات أهميّة بالنسبة للكنيسة هي مقتهم للمسيح، فقد اِعترف الكثير من فرسان المعبد بتبصّقهم على صورته و شتمه خلال طقوسهم الكابالية، و هو تقليد شيطاني يمارس إلى يومنا هذا في محافل«أوتي أو» الذي ترأّسه أليستر كارولي.

تمكّن فرسان المعبد من الهرب من السّجون و التّوجه إلى أُسكتلندا و جزيرة مالطا، و قاموا بتسمية أنفسهم «الفرسان أسياد مالطا» و بعد تشكيل طريق التّجارة في أمريكا الشّمالية، عاودوا الظّهور مطلقين على أنفسهم اِسم «الماسونيّين».

و من خلال واقعنا المُعاش و ما نقرؤه في الجرائد من جرائم اِغتصاب، نوادٍ للشّواذ و تزاوجٍ للمثليّين، قتل، شعوذة و سحر، يمكننا بوضوح رؤية تعاليم الكابالا تمارس هنا و هناك، بعلم أو بدون علم، المهم أنّ هنالك من يسعى لإعادة الكرّة.

والُو: الكرّة؟

أودان: أجل، هناك من يسعى لإيقاظ هالة الكراهية لتجزئة الأمم، الأسر، و الأفراد، و المجزّء إلى أجزاء.

والُو: هالة الكراهية؟ ما الفرق بينها و بين الكراهية؟

أودان: الكراهية شعور...أمّا الهالة فهي اِجتماع شياطين (اِنس و جنّ) على أمر من «لوسيفر»، لست متيقّنًا ممّا سأخبرك، الملعومات التي بحوزتي ترجّح بأنّها جينات شيطانيّة بإمكانها الإلتصاق بمورّثة البشر(DNA) و تغيير الصّفات الحميدة إلى ذميمة، و خلالها يتكفّل القرناء بتبادل معلومات الخصوم فيما بينهم، ليدسُّوا بها الوساوس و الدسّائس بغية اِقتراف الجرائم ذات الرّتب العالية.

- الرّتب العالية؟

- أجل: «الكفر، و إبادة الجماعات».

- هل هنالك شيء آخر؟

- أكيد، التحرّر من القيد و هي إحدى أقوى الصّور القاتمة لهذه الهالة.

- كيف؟

- بعد أن تُلبّي الأرواح البشرية وساوس القرناء السّاكنة في الأجساد، تغادرها هذه الأخيرة لتحكم العالم الذي ظلّت تسيّره لسنوات خلف السّتار.

دكّت الحيرة خلجات والو، ملقية به في دوّامة التّيه : «عن أيّ شيء يتحدّث المعلم أودان؟ أ يعقل أنّ لهالة الكراهية أبعادًا كهذه؟» سرعان ما يستفيق: «ولكنّه أودان الذي رفض الإستوزار، و سخّر حياته مدافعا عن السّلام».

اِهتمّ أودان بالتاريخ و اِستحوذ عن طريق عمله كصحفي على الكثير من الأسرار...ترافع عن الأقليّات و المهمّشين في الأرض، داعيا إلى تفويت الفرصة عمّن يُحيكون للبشر النزاعات و الحروب، فعُرف بعرّاب السّلام.

وقف والو تقديرًا لمعلّمه، بعدما أعادت له المحطّات التي شهدها رفقته قيمته الثّابتة في هذا العالم، ثم طلب منه :

أنت أودان! هنالك ساحة وسط العاصمة بإسمك، لقد سافرت معك كثيرا ورأيت كبار الضّباط، السّياسيين و النّافذين في العالم، يُلقون عليك التّحية باسم «المعلّم». كما أنّك روائيّ وروايتك هذه التي في يدي «فخامة والو» كأنّها نبوءة لا تفارقني أبدًا، رغم أنّني لست بارعًا في المطالعة، فاقتفاء آثارك مبتغاي، أحبّ أن أكون مثلك فحدثني عن نفسك .

أودان: ساحة؟ لا تمزح هي ليست لي بل «لموريس أودان»، هذا تشابه أسماء لا أكثر، أمّا رواية «فخامة والو» فهي نبوءة بيدِ جيل من الأجيال ستكتمل.

ثمّ تقدّم خطوات نحو الطّاولة فلحِقه والُو...لتسافر به الذّكريات إلى سنوات خلت.

...إنّها طاولة شبيهة بتلك التي جلس فيها ووالدا الصبي، تذكّر بأنّ تلميذه هوّاري كان بارعا في كلّ شيء و أعادت شفتاه ذلك الحديث:

أودان: أظنّك طفل النّبوءة؟

هوّاري: طفل النّبوءة؟

أودان: يوما ما، في المستقبل سيأتي على هذا العالم دمار كبير والمنقذ سيكون طفل تلك النّبوءة.

تنهّد أودان وحملق في صبيّه: تطابق اِسمك و بطل روايتي «فخامة والو» أظنّك تسعى لمعرفة ذلك؟ لا بأس سأطلعك على فحوى ذلك الحلم الذي ترجمته في هذه الرّواية:

حدث ذلك منتصف سبعينات القرن الماضي حينما كنت أمارس حماقات الصّبا، أداعب في الثّانية عشرة من عمري لعبة الغمّيضة، غير مدرك أنّ اِختفائي خلفه سيفجّر تلك الرّحلة الغامضة ـ نصب الجنديّ المجهول ـ اِخترت الاِحتماء خلفه كوني وحيدًا مثله، ظننته والدي الذي اِختفى إبّان حرب التّحرير، لم أره قط، لذا سعيت جاهدًا بغية الاِقتراب منه، وفي ذلك الحلم:

الحلم: «إن كنت تودّ معرفة حقيقة هذا النّصب التّذكاري، يمكنك المجيء يوم الأحد إلى مقبرة الشّهداء»

تردّدت مرّة، مرّتين ثم قرّرت الذّهاب إلى هناك رفقة زميلة لي، و بين الأضرحة أبصرنا ثلاثيّا محيطا بنصب الجندي المجهول، هممت بافشاء السّلام كاسرًا وثبات الخوف، فبادرونا بتحيّة ممزوجة بالغموض: «أهلا بك أودان ، صباحك مشرق رينات» و كانوا أوّل من نادانا بذلك، و منذ ذلك الحين حملت و والدة بلمختار هذين الكنيتين. سألناهم عن الرّاقد تحت هذا النّصب فأجاب عمّي موسى :

.والو! ومن ذا الذي لا يعرفه ؟

رينات: والو؟ أ لا يبدو إسما غريبا بعض الشّيء.

عمّي ناصر: كنّا نعتقد ذلك أيضا، لكن؟

عمي عبد القادر: لا يحق لكما الحديث عن أسرار كهذه؟

ناصر: لا يجب أن نحتقر شبابنا.

عمي عبد القادر: ولكنّهما صبيّان؟

ناصر: أ لم يشارك الصّبية في الثّورة؟ أ لم يكن ذلك منهاج الرّاقد تحت هذا النّصب.

أمّا أنا و رينات فدهشنا، يتحدّثون عن شخصيّة حقيقيّة ترقد تحت هذا النّصب التّذكاري، شخصية لا تبدو عاديّة، أ نحن في حلم؟

نزعت حقيبتي من على ظهري وإستسلمت لذلك المكان، لقد قرّر الأعمام سرد قصة والو.

عبد القادر: ذلك الفتى، لقد كان زميلي في الصّف، لم يكن يشعر بالخوف أبدا.

عبد النّاصر: لأنّه ترعرع يتيما، ولأنّنا كنّا قساة معه.

موسى: كان أهل القرية جميعا يعدّونه مصدرا للإزعاج بمن فيهم أنا.

عبد القادر: أجل، فبعد تلك الحادثة، نشأ أهل القرية في مهابة منه، لقد شهدوا بأعينهم تلك القوّة المدمّرة، فتحاشى الجميع الإقتراب منه.

موسى: ماعدا الأخت حسناء التي كانت في صفّك يا عبد النّاصر.

عبد النّاصر: حسناء! كانت الوحيدة التي إعترفت به، رغم الضّبابية التي سادته.

رينات: ضبابيّة؟

موسى: لا ندري؟ ولكن مشواره العجيب رجّح تلك الحادثة التي تداولت يومها.

عبد القادر: أنت أيضا أحببته يا عبد الناصر، وقد تفوّقت علينا جميعا.

رينات: عبد النّاصر أيضا؟

موسى: أجل.

عبد القادر: قرّر والُو الفرار من القرية و من أحاسيس النّكران التي عومل بها، إلّا أنّ عبد النّاصر تقفّى أثره و أقنعه بالعدول عن ذلك :

«إلى أين والو؟ مازلنا لم نلعب بعد بالكرة الجديدة التي أعجبتك البارحة، لقد إشتريتها من أجلك لأنّك صديق حقيقي».

لأنّك صديق حقيقي...أجل أنا أثق بك، كلمات أعادت الثّقة المفقودة لوالُو، و شكّلت من بعدُ الفريق السّابع الجديد المكوّن من والُو، عبد النّاصر وحسناء.

عبد القادر: لقد كان ذكيّا، ذكيّا جدا، أليس كذلك يا موسى؟

موسى: ذكيًّا فوق العادة، كنا نكبره سنًّا، و قد تمكن من اللّحاق بنا فأصبحنا رفقاء في الصّف الذي كان يستعدّ لخوض إختبار السّنة النّهائية.

عبد القادر: كنا نسخر منه ونحسبه أبلها، ورغم ذلك لم ييأس حتى إعترف به الفرنسيون أنفسهم.

لقد تفوّق على الجميع وأكمل دراسته، وتمّ ذلك تحت رعاية وإنفاق أعيان القرية.

رينات : أعيان القرية؟ غريب! أ لم يمقتوه؟

عبد الناصر: لأنّه حمى القرية مجدّدا من فكر الاستسلام لقوّة العدو، كان والُو يصول ويجول بين السّكان كاسرا بمنهجه النّضالي صورة فرنسا التي لا تقهر.

رينات : هل والُو، متميّز لهذه الدّرجة؟

وفجأة أجاب صوت أنثوي من وراء النّصب التّذكاري فالتفتنا لنعرف مصدره، و إذ بها !

المجاهدون الثلاثة: كنا في انتظارك، حسناء.

حسناء: يبدو أنّكم قررتم كشف هوية والُو؟

عبد النّاصر: كنا نقصّ على أبنائنا بعضا من جوانب شخصيّته، حدّثينا عنه أكثر.

تنهّدت حسناء وبقيت تُحَدّق في النّصب، ثم قالت:

وُلِد والُو، بجسد وروح غير عاديّين إمتلكا زمام قوّة مثيرة، فقبل أن تنتهي فترة تواجده في بطن أمه، عمدت عائلته إلى ختمه بتلك الختمة التي رُوي عنها الكثير، والأرجح أنه قبل غزو الإستعمار الفرنسي للجزائر سنة ثلاثين وثمانمئة وألف للميلاد، دارلقاء بين جدّ والُووشابٍّ بهيٍّ، قدّم نفسه على أنّه النّضال، وأخبره بأنّ الجزائر ستتعرّض لخطر كبير، وأنّ المنقذ سيكون أحد أحفاده.

اِضطرب الجدّ من فحوى كلام الشّاب، وطلب منه نصيحة ومعونة علّها تقي شعبه هول ما هو آت، فقام وأهداه ستّة أختام، عرفت من بعد بأختام النّضال الستّة.

أيّامٌ لا تنسى تلك التي عدا فيها والُووسط الأحياء الفرنسيّة منشدًا قصائد عبد الحميد بن باديس على شاكلة (شعب الجزائر مسلم و إلى العروبة ينتسب).

كان مؤمنا بأنّ تواجدهم إلغاء لهويّته، فما بالك وهو يكبر ليكتشف بأنّهم قتلة والديه، تلك الحقيقة غيّرت كلّ شيء، فأبلغ أعضاء الفريق السّابع الذي أصبح يضمّ آلاف المناضلين بأنّ الأهداف قد تطوّرت، و أنّ فكرة الإستقلال قد تبلورت.

رينات : فلنحيّيه على هذه الوطنية التي أبهرنا بها.

حسناء: شكرا لكم.

ثم تقدّمت خطوات توسّطت بها النّصب التّذكاري و رياح الماضي تبعثر دمعها، اِستخرجت قلادة ذهبيّة وضعتها على النّصب وقالت: « لقد كانت هديّته بمناسبة زواجنا».

رينات : زواجكما؟

حسناء: أجل، وقد شهدت معه ما لايتبادر إلى ذهن أحد.

ففي إحدى ليالي سنة واحد و خمسين تسعمئة و ألف للميلاد:

البوليس في كل مكان، دمارٌ هائل في الحيّ الفرنسي.

- إنّه خراب كبير؟

- هل يمكن أن يحدث ذلك؟

- هذا الحيّ منيع جدا، كيف اِستطاعوا التسلّل إليه؟

حسناء: يقال بأنّ المياه قد غمرت سكّان ذلك الحيّ.

رينات : من يقف وراء ذلك؟

حسناء: إنّه والُو، بإيهاب آخر.

الجميع بما فيهم الأعمام: والُو؟

حسناء: لقد أطلعني على تلك الأنوار المنبعثة من جسده و الملقّبة بالأختام، وكان يردّد باستمرار: «لن تذهب دماء إخواننا الذين قتلوا غدرا في الثّامن من شهر ماي خمسة و أربعين و تسعمئة و ألف للميلاد، هباءً منثورًا، لقد أبيدوا بوحشيّة».

عبد القادر : لا زال يذكر إذًا تلك الأحداث المروّعة.

حسناء :أجل، لذا قرّر الآتي:

رينات : ما الذي حدث؟

حسناء: لقد قام بكسر أقفال الأختام كليّا، لا يمكنك تخيّل ما حدث؟ فقد اِنتفض الجزائريّون بشكل جماعي بعد أن غادرختم النّضال الرّابط (أقوى الأختام) جسده مخترقا صدورهم.

وفجأة سكتت العمّة حسناء: ذلك الشّخص؟ لم يكن جزائريّا ولا فرنسيّا، كان غريبا عن المكان و الزّمان معا.

رينات : من تقصدين؟

حسناء : كنت جالسة في«حوش» المنزل أنتظر عودة زوجي، فإذ بشخص غريب يتوسّط الحوش، رغم أنّ الباب كان موصدًا، أخبرني بأنّه لم يكُ يصدّق أنّ للأختام كلّ تلك القوة، و ظّل يردّد:« لا يهمّ كم عدد علماء الكابالا الذين بلغوا ذلك المستوى من التّحكم في جينات الهالة المظلمة، ولا حتّى من اِستطاعوا فكّ رموز الكتب القديمة فإنّهم لن يتمكّنوا من مقارعة حاملي الأختام»، لقد أخبرني بلغة الواثق أنّه سيعود مرّة أخرى ثم اِختفى.

تساؤلاته تلك تفيد بأنّه قد أبصر الأختام، وفي ذلك خطر كبير، فالمتعارف عليه أنّ حاملها فقط من يستطيع ذلك، لم يكن رجلا عاديا، و الأكيد أنّه سعى خلفها، دون أن يدرك بأنّها لا شيء دون تلك الإشارة؟

رينات: إشارة؟

حسناء: قوّة يمنحها الرّب؟ ستلعب دورًا كبيرا في جمع و إيقاظ الأختام الضّائعة من جديد، ومن دونها فالأختام لا تساوي شيئا.

رينات: اِستمرّي عمّتي، فإنّني لا أطيق صبرًا على سماع قصّة بلمختار.

حسناء: بلمختار؟

رينات: عفوًا كنت أقصد الجدّ والُو ، لا أدري من أين أتيت بكلمة بلمختارهذه؟

حسناء: اممم رينات؟ لا زلت صبيّة، سيكون لك شأن كبيرٌ في المستقبل، و ستجبرين على اِتّخاذ قرار صعب، وستعيشين غريبة طوال حياتك.

رينات: ما الخطب عمتي؟

حسناء: لا شيء، فليكمل أحدكم ما تبقّى.

موسى: اِنفجار النّضال واِمتصاصه من طرف شرائح الشّعب فجّر الثّورة المجيدة.

الشّيء الرّائع في ثورتنا هو أن الشّعب من قادها، و حماها ، ورمى بالمستعمر في مزبلة التاريخ، ولا فضل إلّا له.

رينات: الشّعب؟

حسناء: الله الواحد، ردّدوا ذلك مهما اِختلفت دياناتكم، إن كنتم تحبّون أن تقع بين أيديكم قوّة لم يشهدها البشر من قبل.

أمّا الشّعب فقد اِرتأى أنّ لقب والونكران لإنجازاته فمنحه اِسما لا يضاهى بثمن، زاده عزيمة على تقديم أقصى ما يملك، و قد تمكّن في إحدى المناورات التي تلت إتّفاق إطلاق النّار من إنقاذ أحد أبرز الشّخصيات الفرنسيّة ممّا جنّب الطرفين إلغاء الاِتفاق:

- قال له ذلك السّياسي و هو يضمّد جراحه :

«سواء آمنّا بالسّلام معكم أو لم نؤمن فنحن مجبرون عليه، وسط الدّمار و الإحتلال الذي أنشئ بواسطتنا نحن الفرنسيّون، أنا سعيد بظهور رجل مثلك، فرنسا والجزائر سيكون مستقبلهما مختلفا تماما عن أيّامنا هذه، تلك القوّة العجيبة التي تمتلكها والتي يتحدّث الجميع عنها سيكون لها قدرٌ كبير في المستقبل، كُنْ ثوريّا بطريقة لم يسبقك إليها أحد».

لم يرَ أحد البطل والُو منذ الإستقلال لأنّ الجزائريين أعزّوا أنفسهم بثورة زلزلت ركائز الفرنسيّين، إلّا أنّهم ظلّوا ينسبون كل عمل بطولي إليه، وجُسِّد ذلك في هذا النّصب التّذكاري، كرمزٍ لتواجده الدّائم معهم.

أخبرت الجزائر الجدّ الأول لوالُو بأنّها أخفت بداخله سرَّ قُوّة النّضال التي يمتلكها الشّعب، وقد حدث ذلك قُبَيْل مغادرة أسطولها متّجها لخوض معركة «نافارين»، حيث أحسّت بريبة ما إضطرها إلى إتّخاذ ذلك القرار المصيري، فأرسلت النّضال على هيأته البشرية مُحمّلا بالأختام إلى ذلك الشّيخ وإستأمنته عليها، فاستأمنها بدوره الأجيال المتعاقبة بختمها في قلوب أبنائه.

لقد مثّل والُو إرادة شعب، ومثّلت فرنسا قوى الشّر، في معركتهما التي إنتهت باستقلال موطن الجندي المجهول...

حسناء: أختام النّضال لا تزال طليقة وقد آن الأوان كي تبرز في هذا الجيل، أ ليس كذلك أودان؟

أودان: كيف؟

حسناء: من اليوم فصاعدا أنتما «أودان» و «رينات»، لا تحيدا عن ذلك مهما تعاقب الزّمن!، ذلك الإختبار الذي حدّثتك عنه النبوءة قادم إليك لا محال، أودان أنت مناضل كبير يمتلك مواهب حقيقية، شكّل فريق أختام وإحمه، إبحث عن الطّفل الواعد الذي سيخوض إختبارا عظيما ودع له إختيار الدّين، وقوة سيمنحها الرّب ستكون إلى جانبكم يوما ما، فلا تستيئسوا من البحث عنها!.والآن كونا حذرين فحارس المقبرة قادم نحوكما، وداعا...

توقّف أودان عن سرد روايته لأنّها ببساطة إنتهت، إستنشق هواء عليلا إسترّد به ماضٍ قريبًا، ثمّ خاطب تلميذه : «طعامك بحاجة إلى التّسخين، دع عنك هذه الرّواية فبالنّظر لما تلاها من أعمال يمكن القول بأنّها تافهة، لذا لم أفكّر يومًا في إستكمال جزئها الثّاني، ولكنّ أباك كان ينظر إليها بشكل مغاير» :

كلّا إنّها رواية رائعة، إصرارٌ وعدم إستسلامٍ بطلها أدهشني، هكذا كنت أفكّر، وآمل أن يتمكّن إبني الذي أترقب إطلالته في أن يتّسِم بتلك الصّفات، لذا أستأذنك كي أطلق عليه إسم الشّخصية البطلة.

- أخبرته بأنّه إسم عارض،إنتقيته لروايتي في إحدى جلسات البلياردو رفقة أحد السّياسيين البارزين الذي ظلّ يُردّد بأنّهم والو، وحين إستفسرته عن من يتحدّث؟ أجابني ببرود: «الشّعب».

إلّا أنّ والدك أصرّ على ذلك، أجل فقد كان قائد فرقة الأختام السّتّة، وقد ترك لي ذلك الفتى، إنّه أنت، أجل هو أنت...

حدث ذلك بعدما أخبرني الجنديّ المجهول حين كنت أختفي خلفه في لعبة الغمّيضة، بأنّني مجرّد صحَفيٍّ يسعى لنشر السّلام، ومع مرور الوقت سيصبح لي تلميذًا وتابعًا، وذلك التّابع سيُحدث تغييرًا عظيما في هذا العالم، فإمّا أن يُسبّب دمارًا هائلًا أو يصنع اِستقرارا شاملا. كما أنّه سيأتي يوم أجبر فيه على اِتّخاذ قرار جادٍّ وحرج، واِختياري سيرسم الطّريق الذي سيسلكه تابعي.

سألته عن السّبيل الذي سيمكّنني من اِتّخاذ القرار الصّحيح فأجاب : «ما رأيته هو أنّك مسافر حول العالم، تؤلف كتبا وفقط ».

سألته ثانية إن سبق ولم تَصْدق رؤاه من قبل فردّ بالنّفي، وهكذا غادرت الوطن باحثا عن ذلك التّابع، وخلال عملي الصّحفي صادفت أعداء كُثر يسعون لتدمير البشريّة، وفي إحدى اِشتباكاتي الفكرية المؤثّرة على العقول عبر برنامجي التلفزيوني :

- يجب أن تيأس أودان، فنحن مصمّمون على اِجتثاثكم.

- بدلا من أن ترشدني إلى اليأس، سأرشدك إلى سبل السّلام.

- حتى وإن قضيت عليّ، فأمثالي سيهاجمونكم لا محال، طالما قُدّر لنا العيش في هذا العالم، فلن يكون هنالك سلام.

- إذًا سأعمل على إحلاله، و إن كان هنالك شيء يقود إلى ذلك فسأغتنمه.
وهكذا واصلت سبيلي، داعيا إلى السّلام من وطن لآخر.

أمّا في الجزائر فقد اِندلعت تفجيرات عدوانية في شتّى الرّبوع، ذلك الظّلام القاتم برز دون سابق إنذار، متسلّلا، مستغلا ظاهرة كسوف مفاجئ ـ في إحدى تقنيّات اِستدعاء الأرواح و التّعاويذ الشّيطانية الكبالية، منتحلا أشكال شخصيات مألوفة، فلم ينتبه إليهم أحد.

كان يافعًا مفعما بالدّفء وتلميذي أيضا، إنّه والدك هوّاري التّيكر. يومها اِخترق الظّلام الظّهيرة متستّرا بكسوف طارئ، تحاشى الجميع النّظر صوبه مخافة الإصابة بالعمى، عدا أعضاء الفرقة السّتة، الذي صادف حدوث هذه الظاهرة تواجدهم في منزلك.

تحدّث ماهر والفضول يمزّق صبره: «لو أنّ بحوزتنا نظّارات خاصة لأتيح لنا رؤية الكسوف، أليس كذلك ؟»

سالم: يقال بأنّه ظلام مؤقّت، إقتناؤنا نظّارات قد يُعدّ نوعا من التّبذير لا غير.

والدك هواري: لا بأس، سأعدّ لكم الشّاي الصّيني الدّافئ.

...وهو كذلك أحسّ بقطّته ترتعد، ضمّها إليه فوجدها خائفة، أنزل يديه أرضًا فأحسّ ببرد قارص، حينها رمى صينيّة الشّاي، وعاد إلى القاعة مسرعا « ظلام في الظّهيرة، و جوّ قارص في الصّيف؟ لست مطمئنّا لذلك».

وحينها تقدّم فاتح أحد أعضاء الفرقة نحو الخارج، و كان أعمى البصر، حادّ البصيرة.

فاتح: لم أبصر النّور منذ ولادتي، مفاده إلمامي الكامل بأطياف الظّلام وتدرّجها، السّواد القاتم دليل على أنّنا غارقون وسط مجال مغلق، لا أستبعد أن يكون نتيجة فعل فاعل.

ثمّ رفع عينيه صوب السّماء: إنّهم يتساقطون بغزارة، الكسوف وسيلة تمويه ليتيح للدّخلاء العبور دون أن يشعر بهم أحد.

وبعدها بدقائق زال الظّلام وعاد الدّفء، وإستمرّت الحياة، وكأنّ شيئا لم يحدث، ولكنّ فرقة الأختام أبصرت كلّ شيء.

الوطن العزيز سنة: اِثنتين و تسعين و تسعمئة و ألف للميلاد:

كان الغرض إخطار السّلطات العليا بحقيقة ما حدث، كيف السّبيل لإيصال الفكرة؟ و الجيوش النّظامية لم تألف هكذا تحديّات، بيد أنّ اِغتيال الرّئيس أكّد تلك الشّكوك، فبات على الجميع مواجهة الحقيقة. حقيقة ليست كسابقاتها، عدُوٌّ واضحٌ جليٌّ، بل خوفٌ ورعبٌ ساقه مصّاصو الدّماء، ووفقا لذلك اِنطلقت التّفجيرات بغية تحطيم الوطن، وجعله وكرًا للأشباح، لكن فرقة الأختام قرّرت أيضا:

والدك: هذا موطننا، إرث أجدادنا والأجيال القادمة، يجب أن نفعل شيئا من أجله...

وفجأة قاطعه أحدهم: سيّدي، حواجز مزيّفة تملأ الطّرقات، نحن بحاجة إلى الأختام سيّدي.

كانت مقارعة الإرهابيين شيئا صعبا بالنّسبة لبلد مسالم، ويوم حاصرتهم الفرقة باء من المظلّيّين، أخبر النّاجون من تلك المجزرة بأنّهم واجهوا قوى تستخدم رموزًا مجهولة المعالم وتمّ ذلك :

عند الأخضريّة

أعضاء الفرقة باء: تبّا ما هذه الهالة المظلمة؟ ينتابنا شعور سيّئ.

قائد الفرقة باء: كلٌّ في مكانه، سأتولّى أمره .

أعضاء الفرقة باء: على رسلك، لا يمكنك التّقدم أكثر.

قائد الفرقة باء: من خلال المعلومات التي قدّمها لنا المعلّم أودان، فتحرّكات العدوّ في الآونة الأخيرة تكسوها طقوس تُحاكي قِوى فوق المعطى العام للبشر، تلك الهالة المظلمة؟ سأكون الطّعم، ففي الأخير أنا قائد المجموعة والمؤتمن الأول على هذه المهمة، أرجو أن تحمل جثتي أسرار الهالة.

تمكّن الباقون من الفرقة باء من اِسترجاع جثّة القائد والعودة بها، وبعد تشريحها كُشف السّتار عن جينات شيطانية :

الجنرال: امممم، الجينات الشّيطانية؟

المستشارون: إنّها قواعد آزوتية يمكنها التّلاحم مع مورّثة الإنسان (DNA)

الجنرال: الجينات الشّيطانية، لعنة تُستدعى من كتب السّحر و الكابالا.

أعضاء الفرقة باء النّاجين: كانوا سريعين جدًّا، و قد أوحي إلينا لوهلة بأنّنا أعداء، فقد اِسترجعت مخيّلتنا خصومات قديمة تجاوزناها آنفا.

الجنرال: لا تقتربوا منها، تسلّلهم بتلك الطّريقة، دليل اِحترافيّتهم، إن صدق وكانت الهالة المظلمة القديمة فلنستعد للأسوء...

بلغ نبأ اِستشهاد قائد الفرقة باء مسامع فرقة الأختام السّتة، وحينها سُلّت المعاطف، واِتّخذ القرار المصيري بتحرير الأختام .

كان الجنرال يعي جيّدا بأنّ تحرير الأختام، إيذانٌ بمغادرة أرواح الفرقة إلى الملكوت الأعلى.

والدك(الهوّاري): لا داعي لنغادر جميعا، سأقوم بتقييد الهالة المظلمة، وسآخذها معي إلى العالم الآخر.

أعضاء فرقة الأختام: أنت تلميذ المعلّم أودان وصاحب الختم الأقوى، بالإضافة إلى أنّ زوجتك على وشك الولادة، أنت كذلك ستنسحبين رينات، تذكرين نبوءة العمّة حسناء، سنقوم بالمهمّة بدلاً منكما.

وهكذا أنزل الإرهابيّون الجينات الشّيطانية مجدّدا فيما عرف بمعركة «القَيْد»، خاض خلالها أعضاء الفرقة نزالا أذاب جذور هالة الكراهية؟ ولكنها عاودت الظهور مجدّدا، إلا أنّ الهوّاري تمكّن من إيقافها، منهيا معضلة هذا الوطن.

وبعد تلك التضحيات المتتالية، خيّم الهدوء وتقدّم الشّعب لينتخب إحدى الصّفات التالية (الأمن أو المحبّة أو الصّداقة) ولكنّه أبى التفرقة بينها واِنتخبها جميعا فنتج عن ذلك شعور جديد لقب بالوئام المدني.

وهكذا حمل جيل والدك المشعل، ورغم أنّه فارق الحياة، إلّا أنّه حمل لقب التّيكر.

والُو: أين يمكن أن تتواجد أختام النّضال؟

أودان: لا أحد يعلم ذلك، ولكنّها ستبرز يوما ما لمن يستحقها...هناك أمر آخر أودّ أن أخبرك به، إن كنت تهتم لتلك الهالة فادحض و من معك الكراهية القابعة في أعماقكم أولا، لوسيفر ليس صنيعنا نحن، إنّما هو خلق من مخلوقات الله، القوّة مسعى مباح وليس منكرا امتلاكها، هنالك فقط من يختار طريق الله لبلوغها، وآخرون يختارون لوسيفر، قد علِمت القوى التي يمنحها الشّيطان لأتباعه، اِبحث عن القوة التي يمنحها الله لأتباعه إن كنت تودّ مقارعة أعداء البشرية.

والُو: الله؟ لكنّني لم أسمع من قبل بقوة يمنحها الله إنّما هي صلوات نؤدّيها، زكاة نخرجها وحجٌّ نحجّه إن اِستطعنا إليه سبيلا.

أودان: إنّ الميزة التي عرف بها الكاباليون تحليلهم النّص كلمة بكلمة، بل الكلمة حرفًا بحرف، أخبرني والدك ذات مرّة عن «حديث قدسيٍّ»... اِبحث عنه، حلّله و اِستخرج القوّة الكامنة فيه، ثمّ هنالك شيء آخر لتحارب أحبار الشّر يجب أن تحيط بتاريخ أجدادك وودسائس الزّمن، وأن لا تظلّ ذلك الوالُو فالنّاس على دين الملك، إن عزم عزموا وإن أرخى تراخوا ... (قوّة يمنحها الرّب،و معرفة التّاريخ). ستجتمعان و الأختام في رجل أو في جيل ما؟ سيُدحَض بها هالة الكراهية ويعيد الطّمأنينة لهذا العالم، وإلى ذلك الحين لا تنسَ هذه الكلمات.

قوّة يمنحها الرّب، معرفة التّاريخ، السّبيل الوحيد لإيقاظ الأختام الضّائعة، كلمات أشعلت طموح الفتى و أعادت إليه الأمل من جديد، بعدما فجعته تلك القوى الشّريرة التي سمع عنها.

كانت تلك الجلسة بتاريخ الثّاني عشر من جانفي تسعة عشر و ألفين للميلاد، بعدها ببضعة أسابيع، خرج المحقورون، المسروقون، المظلومون وكلّ من قيل عنهم أنّهم والو، وقد تبيّن أنّ منهم كثير، متراصّين كالبنيان في حراك سلمي شعبي عظيم جسّد أعظم تجلّيات الأخوّة، ومثّل للعارفين بخبايا الأختام بوادر ظهور إحدى أختام النّضال، ألا و هو ختم الحراك الذي غمر قلوب الملايين، وقاد المسيرات إلى هدفها المنشود، كيف برز و أين اِختفى مجدّدا؟ و من يقف وراء ذلك؟ لا أحد يعلم.

شاهد بعض العارفين رينات الجزائرية المتوارية عن الأنظار منذ سنوات رفقة شخص مقنّع في إحدى المظاهرات، رينات التي اِغتالت عائلتها لسبب واحد ألا وهو :

« مشاركتهم في مظاهرات الزّيت و السّكر، جانفي أحد عشر و ألفين للميلاد».

تمّ التّطرق لظهورها المفاجئ عبر مختلف القنوات التلفزيونية، فاِزدادت خشية المتظاهرين على سلميّتهم، و عضّوا على الأخوّة بالنّواجد، فكان سببا وجيها لنجاح الحراك.

في حين إنصرفت الطّاولات المستديرة ترسم صورا للجماهير عن تلك المرأة، فنقشت في الأذهان «رينات الجزائرية منبوذة الحراك...».

مرّت السّنوات و التحدّيات، إجتهد فيها لألّا يحيد الحراك عن مساره و قد تمّ ما تمّ، إلا أنّ إعادة المظالم لأهلها لقي عراقيل كثيرة.

أمّا والُو فقد أبلى بلاءً كبيرا في الإصلاح بين النّاس بعدما أدرك، أنّ القيل و القال، و النّميمة، أغذية هالة الكراهية المفضّلة.

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

إنتقل والُو إلى دراسة علْم الخلايا في جامعة «ع»، تعرّف خلالها على طالب ذي أصول فرنسية يدعى (جاك) تقاسما الغرفة، فنشأت بينهما علاقة صداقة قوية، لم تُنسه يوما بأنّ بلمختار صديق إستثنائي بالنّسبة له. غادر بعدها تلك الجامعة في ظروف غامضة، بعدما توصّل إلى أنّ السّر الذي يتيح للشّياطين التحوّل إلى أجساد متعدّدة، يكمن في عدم إمتلاك خلاياها لأنوية، فاشتغل على دراسة ذلك سنوات طويلة.

تغيّر حال والُو، بالأمس قرانه، و قد أقام له أصدقاؤه حفلا يليق به، لقد إستطاع إثبات نفسه و لا يهمّه ماضٍ لم يختره، متطلّعا لمستقبل طموح رفقة عائلته الصّغيرة، و أودان يسلّمه لمن سترافقه حياةً جديدة و دموع الفرح تبلّل قميصه الفاتح :

«لا زلت حيًّا أيُّها التّيكر، أعلم أنّك تشاهدنا من مكان ما!، كن مطمئنّا فقد كبرإبنك وبإمكانه الإعتماد على نفسه».

اِنتقل والُورفقة زوجته إلى العيش في العاصمة، وعملا سويّا على تحليل النّصوص الدّينية ودلالاتها العلميّة متقرّبين إلى الله في ذلك غيرمبتعدي عنه، وأعينهما ترنو إلى تلك القوّة التي سيمنحها الرّب، وعن مفتاحِ تاريخ يريهم بحق الوقائع بعيدا عن ذاتية الكَتبةِ، وفي إحدى الليالي الممطرة مِنْ سنوات ما بعد الحراك، جاءه شخص في المنام معاتبا إيّاه: «أصبحت أبا، لم تعد تسكن معنا، أ لم تشتق لوالديك؟ يمكنك فتح الغرفة الثالثة... ننتظرك هناك، سنغادرعند طلوع الشمس».

الجزائر العاصمة ـــــ تلمسان، السّاعة العاشرة ليلا، سيارة الأودي الزّرقاء تقطع به المسافات، تقفز به فوق فوضى المطّبات، فلا يدري أحاجز ولّى، أم حاجز آت؟ لم تتبقّ سوى مدينة واحدة، شارع واحد، منزل واحد،إنّها الدّرجات، درجات الذّكريات، كل شيء في مكانه، لا يوجد لصوص في تلمسان، نور الغرفة الثّالثة يشعّ تحت الباب، بحث عن المفتاح، لا يهمّ الباب مفتوح، اِدفعه فقط.

لم يجد أحدا بالدّاخل، جهاز تلفاز قديم تعلوه الصّور، والدته سوداء الشّعر...يشبه والده؟ لم يجد تعاويذا... ليس هناك شمعدان كالذي حدّثه عنه بلمختار... أوراق كثيرة مبعثرة، تاه بين سطورها... قرأها جميعا... لم يجد فيها مبتغاه...وقبل أن يدبّ اليأس بين جنباته، اِسترعت اِنتباهه

قصاصة تحت الطّاولة، دنى منها...رفعها، وبيدٍ مرتعشة، همّ يقرؤها: «إن كنت تقرأ هذه القصاصة، فذلك يعني أنّك كبرت و بحاجة للحصول على «قوّة يمنحها الله » يمكنك تشغيل التلفاز، ستجد فيه القصّة الكاملة لما حدث:

جلس والُو على كرسي والده، فتح التلفاز، فكان المشهد كالآتي: ، اِقتتال، صراخ و تحدّي من نوع آخر، يومها :

هوّاري التّيكر : لقد تأخّرنا فقد حرّرت القوى الشّريرة، اِستفحال الفتن بهذا الشّكل نذير شؤم بقدوم الفتنة الكبرى، أتوافقونني الرّأي؟

فرقة الأختام: أنت صاحب الختم الأقوى من بين جميع الأختام، بالإضافة إلى أن نهر «موثول» العظيم أهداك لقب التّيكر الأسطوري، اليوم تيقّنابما لا يقطع مجالا للشّك من أنّ المنظّمة تسعى لِاستدعاء ذلك الرّجل الخارق، الذي سخّر له الله عزوجل الجنة و النّار ، و قوى أخرى.

التّيكر: قرّرتم ذلك إذن؟

فرقة الأختام: لأجل أمّتنا وسلامة شعبنا قرّرنا تحرير الأختام التي بحوزتنا لنقيّد الشّر، وندع للقادمين وقتا كافيا كي يستعدّوا لمجابهة ذلك الممسوخ.

وهكذا ترابطت الأيادي فيما بينها، وخاطب المناضلون أختامهم :

هذا آخر ما يمكننا القيام به لأجل هذه الأمّة، تحرّري أيّتها الأختام، مِلكٌ للشّعب أنت قبل كل شيء.

تحرّرت الأختام، لم يشاهدها أحد، ولكن أثرها كان واضحا في حجب هالة الكراهية، و قد قيل بأنّها أنوار و أحاسيس، و هناك من قال بأنّها ملائكة.

لكنّ غياب ختم النّضال الرّابط عجّل في عودة الهالة من جديد في تلك الليلة التي شهدت ميلاد والو، و وفقا لذلك إنطلق أحد أفراد القوّات الخاصة، وا قتحم غرفة الولادة :

- سيّدي التّيكر، لقد تمّ رصد أئمة الكفر و كبار الشّياطين المارقة الممتدّين حتى زمن النّبي سليمان الطّاهر رفقة هالة مظلمة في نهر موثول، إن تأخرنا نصف ساعة، فلن نجد الجزائر على سطح هذه الخارطة.

التّيكر: هيّا بنا.

خولة(والدتك): خذني معك.

التيكر: ولكن...

خولة: لقد خفّت آلام الولادة، يمكنني إستعمال الختم الخاص بي، فلا داعي للقلق.

العشريّة السّوداء...؟ أكثر من مئتين و خمسين ألف قتيل و مفقود، لقد دمّرت هالة الكراهية، و تواطؤ القرناء الكثير من الأشياء الجميلة التي كان الشّعب يتقاسمها، وإندثرت الثّقة بين أفراده في معركة كنّا في أمسّ الحاجة للوحدة .

و في ساحة المعركة تلك تأكّد التّيكر بأنّ هالة الكراهية ما كانت لتعود لولا تحكّم أحدهم بها، فتبادر إلى ذهنه:

« لا بدّ أنّ أحدهم سعى لإيقاظ الفتن والكراهية، كما أنّه متمكّن من طلاسم دمج الصّفات القبيحة والشّرور، بما لا يدع شكّا أنّه شخص خطير أكثر من الهالة نفسها، فمن هو يا ترى هذا الشّخص؟»

قال التّيكر: من أنت؟ تجلّ فقد تحسّستك منذ البداية.

وهكذا برز ذلك المقنّع مخاطبا التّيكر: «تلك تسمّى الفراسة، هذا متوقّع من هوّاري التّيكر، أعترف بأنّك قوي إذ تحسّست وجودي» .

التيكر: تحرير هالة الكراهية تمّ عبر كسر الحاجز الذي صنعته أختام النّضال التي شدّت وثاقها من قبل، تبّا من أنت؟ وكيف تمكّنت من رؤية مواضع الأختام؟ لا يمكن لأحد كشف الأختام.

المقنع : حين أتمكّن من ضمّ الأختام المتبقيّة (ختمك ووزوجتك وربنات) سأتمكّن من إستعادة قوّتي من جديد، لأسيطر على هذا العالم كما كتب على الألواح القديمة.

التّيكر مخمّنا: «لقد اِستطاع القضاء على أحد أقوى الفصائل التي تخضع مباشرة لإمرة الجنرال ، وتمكّن من رؤية الأختام، وهو يعلم بأنّ قوّتها تضعف دون تواجد الختم الخاص بي (ختم النّضال الرّابط)، إضافة إلى ذلك، فقد ألغى مفعول ختم الأخوّة بطريقة توحي إلى أنّه تمكّن من إلغاء البقيّة، بل وروّضها أيضا، ودخل وخرج إلى الجزائر دون أن تتمّ ملاحظته، إنّي أعرف شخصًا واحدا قادرا على فعل ذلك، ولكن ؟»

المقنّع : تحليل دقيق.

التيكر: ولكنّه غادر الحياة؟

المقنّع: ربّما، وربّما لا ؟

التّيكر: رؤيتك لأختام النّضال واقعة لم تحدث من قبل، آه سأسحب كلامي، فقد تحدّثت جدّتي حسناء عن ذلك الشّخص الغريب في حوش منزلنا الذي أبصر الأختام إبّان الثّورة، قدرتك الرّهيبة على الرّؤية تقودني إلى تلك الحادثة، كما أنّ تجسيدك للشّر وصفاته في صورة هالة، شبيه بالأفاعي التي ألقاها سحرة فرعون، رجل تمكّن من رؤية الملائكة سيكون بمقدوره رؤية مواضع الأختام بسهولة، وتلك الرّموز التي يحملها رداءك العجيب، أ يعقل أن تكون ذلك السّامري ؟

. من هنا، وعلى عجالة،دعونا نكتشف هوّيّة السّامري:

عندما خرج سيّدنا موسى وقومه من فلسطين بعد أن أغرق الله فرعون وجنده، عبروا صحراء سيناء متوجّهين نحو فلسطين، وفي طريقهم وجدوا قومًا يعبدون عِجلًا فقال قوم موسى له:« اِصنع لنا إلهًا نعبده» فقال لهم موسى: «للتوّ نجّاكم الله من فرعون، و الآن تريدون أن تعبدوا غيره وتشركوا به».

وهم كذلك، جاء يوم الميعاد الذي وعد فيه الله موسى بأن يكلّمه، فاتّجه نبيّ الله إلى جبل طور، وترك أخاه هارون بعدما اِستأمنه على القوم. في تلك الأثناء برز رجل اِسمه السّامري، تظاهر بالإيمان بيد أنّ قلبه كان خاويًا، وقد تمكّن من رؤية جبريل عليه السّلام حين وطأت قدماه البحر ليغرق آل فرعون، فقام وأخذ أثرا من تلك المطيّة و اِحتفظ بها.

خلال الأربعين يوما التي مكث فيها موسى يناجي ربّه، حدثت مصيبة، حيث جمع السّامري ذهب بني إسرائيل وقام بصهره في هيئة عجل، ورشّ عليه بعضًا من أثر جبريل فصار عجلا له خوار، وهكذا أقنع السّامري القوم بأنّ العجل ربّهم وربّ موسى.

ورغم أنّ هارون أخبرهم بأن السّامري يخدعهم غير أنّهم صدّوه، فلم يرد هارون أن يحدث فتنة أكبر وانتظر عودة أخيه، وفي تلك الأثناء أخبر الله موسى بأنّ قومه قد فُتِنوا بالعجل، فغضب سيّدنا موسى وعاد إلى قومه.

لم يعاقب موسى عليه السّلام السّامري كما شرّعت الأديان، وكان ذلك واضحًا حيث ورد في الفرقان ما دار بينهما من حديث في قوله جلّ وعلا :

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾

إذًا فالسّامري تمكّن من رؤية الملك جبريل عليه السّلام، لم يقتل كما حدث مع البقيّة المرتدّة من قومه، والأكثر من ذلك أنه رأى غضب موسى وكيف كاد يفتك بأخيه هارون، في حين كانت إجابته باهتة « وكذلك سوّلت لي نفسي » .

على هذه الشّاكلة فالسّامري رجل أوتي قوّة جعلت اِجتنابه الخيار الأمثل، وفي الأخير لم يكن باستطاعة أحد التّعرّض له لإمتلاكه قِوى فوق المعطى العام للبشر، والدّليل على ذلك قوله: «بصّرت بما لم يبصروا به» .

قال التّيكر: اِذهب فإنّ لك أن تقول في الحياة لا مساس، أي لا يمسّك أحد حتى تأذن له، و من يومها وأنت تقرّب إليك من تشاء و لا يمسّك إلّا المُوالون لك.

المقنّع: « أووه، رجل عبقري مثلك! تمنّيت لو أنّك بجانبنا في المنظّمة».

التّيكر: لا يهمّ إن كنت أحدهما (السّامري أو الرّجل الذي تحدثت عنه الجدّة) الدّجال الأكبر أم الأصغر، المهمّ أنّك تمتلك معتقدا خَطِرا ويجب إيقافك على الفور.

المقنّع: ...لا ضير أن تحاول!

التّيكر: «إن كان ذلك الرّجل فمن الخطر مساسه، كما يستوجب علي تجنّب هجماته اللّامسة، بقي بحوزتي ذلك السّر السّماوي، قد آن الأوان لتغادرني يا ختم النّضال الرّابط، لتشّد صلة الأختام وتقيّد هذا الظّلام ».

اِنطلق الختم الرّابط وشيء آخر لم يره أحد حتّى ذلك المتمكّن العجيب في الرّؤية.

التّيكر: قد قرّرت المغادرة عزيزتي خولة، يمكنني معرفة ما تودّين قوله، ولكن تذكّري نبوءة المعلّم أودان.

أودان (يومها) : أظنّك طفل النبوءة أيّها التّيكر ؟

التيكر : كيف؟

أودان: يوما ما في المستقبل سيأتي على هذا العالم دمار هائل و المنقذ سيكون طفل تلك النّبوءة .

التّيكر : بظهور هذا الرّجل، أصبحت متيقّناً أكثر من أيّ وقت مضى بنبوءة أودان.

وهكذا تراجع إلى الوراء وقام برفع يده اليمنى وسبّابته تشير إلى السّماء، إنّها تقنيّة الشّهادة و التوحيد.

المقنّع: تلك التّقنية؟ كيف له معرفة نقطة ضعف هالة الكراهية؟ سيقلّص من قوّة تحكّمي بها، بل سيفصلها عن إرادتي، و سيستردّ الأختام العالقة بها، يجب أن أوقفه.

وإنطلق ليقضي على التّيكر المنشغل بتقييد الهالة المظلمة بعدما باشرت إشارته تلك في إضعافها، ولكنّها إنطلقت بالتّوازي، وإمتصّت هجمة المقنّع الموجّهة نحو زوجها وهي النّافس...هذا ليس «تايتانيك» إنه حبٌّ وقعت أحداثه في بلد يدعى الجزائر، حبٌّ لابدّ أن تسمع عنه الأجيال القادمة.

وهكذا طرقت سكرات الموت أبوابها ، لقد نجا التّيكر وبوشرت عمليّة إضعاف الهالة، بينما لا زال ذلك الرّجل على قيد الحياة، حينها بسمل التّيكر وكشف هجومه اللّامرئي، في إشارة إلى أنّه لم يكن يقاتل منفردًا، فجُند الله الجميل أيضا يمقت الكراهية.

المقنّع في حالة هستيريّة: ماذا؟ ما دخل الرّياح؟ ما دخل اللّامرئيين؟... فهمت؟ يبدو أنّه إستوفى شروط الدّعم الإلهي.

قال تعالى في حديثه القدسيّ: «وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذّي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن اِستعاذني لأعيذنّه» رواه البخاري.

قال المقنّع محدّثا نفسه: «توحيد، ونضال حقيقيّ... !يبدو أنّ ذلك مكّنه من رؤيتي في الهجوم الذي تصدّى له أفراد فرقته ،وقد قام بتحليل حركاتي»... ثمّ اِهتزّ جسده صارخا: « تبًّا هناك حاجز ما يحول بيني وبين الهالة، ماذا؟ أحسّ بفقداني السّيطرة على الفتن، لا يصدق ختم «التّقليص» الذي طُفت الأرض بحثا عنه بحوزته، ولكنّه ليس أحد أختام النّضال؟ فكيف علم بتواجده؟ يبدو أنّه جهّز نفسه جيّدا لهذه الموقعة، بهكذا ختم سيفصل الهالة عنّي، وسيعيد الطّمأنينة و الاِستقرار من جديد».

ثم خاطبه مذعورا ، مندهشا:

لقد أخّرت عودتي لسنوات أيّها التّيكر، لن أنسى أنّك أصبتني في مقت، وتمكّنت من تقليص إرادة الشّر والوساوس والدّسائس التي جمعتها لقرون في الهالة، وحرمتني من قوّتها، ستموت بعد تحريرك الأختام ولن يسأل أحد عنك وعن الهزائم التي مُنّيت بها من قِبلِ أمثالك، سأعود يوما ما وحتّى ذلك الحين ستوجد طريقة أخرى لإبطال مفعول أختام النّضال، وإلهاء الأجيال اللّاحقة عن بطولات الأجيال السّابقة فَقِرطا التّاريخ العجيبان ها هنا.

وهكذا غادر ذلك الشّخص غِمار المعركة وبقي التّيكر المرهق من إستعماله لأختام النّضال، وزوجته الرّائعة و رضيعهما الذي هو أنت، لقد شّد ختم النّضال الرّابط باقي الأختام وقيّد هالة الكراهية.

اِلتفت التّيكر لزوجته : « سامحيني خولة، سأضع ختم «الحراك» الخاص بك داخله، لا زال رضيعا سأأتمن السّلام كي ينقل أختام النّضال إلى المعلّم أودان، لم يتبقّ من أعضاء الفرقة سوى رينات الجزائريّة و ختمها «ختم الإنقضاض»، أرجو أن لا تلحقنا بسرعة» .

وهكذا قام التّيكر بطريقة عكسيّة لتلك التي تعوّدنا رؤيتها عند الرّقاة فَخَتم الحراك داخل صبيّه، واضِعًا على عاتقه ذلك الحمل الثّقيل، من أجل سلامة وطنه وأمنه، مرّرا إليه قوّة ستلعب دورا كبيرا في صناعة السّلام في السّنوات القادمة، مؤمنا بأنّ الكارثة المرتقبة ستكون من صنيع ذلك المقنّع، و أنّ من سيوقفه هو هذا الرّضيع.

قال التّيكر: واثقون بأنّ الله عزّ وجلّ واحدٌ أحدٌ وأنّ محمّدًا عبده ورسوله وآخر أنبيائه، وأنّنا العشيرة التي نالت شرف اِحتضان أختام النّضال، والموكّلة بالسّيطرة عليها، سنختم الحراك في هذا الرّضيع، وكلّنا ثقة في الأجيال القادمة.

ثمّ سقط إلى جانب زوجته النّافس التي لم تصدّق بأنّه سيغادر الحياة أيضا، وفي منظر صُنّف على أنّه الأرق في عالم النّضال:

خولة : لمَ كل هذا أيّها التّيكر ؟ لِم هذه التّقنية؟ أريد منك البقاء إلى جانبه لتحميه، لِمَ الختم؟ المناضلون منبوذون وسط مجتمعاتهم، لِمَ يستوجب على اِبننا المعاناة؟

التّيكر ممسكا إياها: من يتخلّى عن دولته و شعبه كمن يتخلى عن طفله، لقد حُطّم موطنكِ، لذا من بين الجميع يجب أن تكوني الأقدر على التّضحية... أن تتخيّلي الحياة القاسية التي سيعيشها أولئك الذين يفقدون أوطانهم...سأضع على عاتقه محاربة الكراهية التي سيعامله بها النّاس، في الأخير سيحارب هالة أكبر، كما أنّ واجبه النّضالي قد اِبتدأ لأنّ عائلتنا مكوّنة أصلا من مناضلين... لقد خارت قواي ولم يتبقّ الكثير من الوقت لأنهي عمليّة الختم...

شعره «بنيّ» لم يسعنا الوقت لتسميته، ما رأيكِ أن نترك للمعلّم هذه المهمّة؟ لقد أطلّت شمس الثّاني و العشرين فيفري تسعة و تسعين وتسعمئة وألف، لن يتمكّن من اِستخدام الختم إلاّ بعد مرور عشرين سنة، ولن يتمّ ذلك دون اِستفزازله، أودان مُحيط بخصائص الأختام سيتكفّل بالبقيّة، إن كان هنالك شيء تودّين قوله لهذا الرّضيع فاسرعي، قد نفذ الوقت.

دنت أمّه منه وهو النّائم الذي لا يعِي ما يدور حوله، كانت تدرك بأنّ المعاناة سترهقه:

بنيّ لا تكُن صعبًا، تناول الأكل لتصبح كبيرا وقويّا، لا تستيقظ مُتأخِّرا فأنت بحاجة إلى أشعّة الشّمس، و لا تُلطّخ الجدران ببقايا الحلويّات

العالقة بين يديك، اِمتلك أصدقاء، لست بحاجة إلى الكثير منهم، تذكّر دائما بأنّ للجميع نقاط قوّة و نقاط ضعف، اِحترم معلّميك وزملاءك في المدرسة، و أيضا هناك شيء مهمّ يخصّ الخصال الثّلاثة للمناضلين، فالدّعاء والعمل والتوكّل على الله أرقى من الذّهاب إلى الأضرحة والتضرّع لها ، النّساء نقطة في غاية الأهميّة، لا أقول لك اِبتعد عنهنّ فالحياة رجل واِمرأة، لذا فمن الطّبيعي أن تجذب اِهتمامك إحداهنّ، فاِختر الفذّة التي تحترمك، كُن جادًّا فالمعلّم أودان لا يحب المتهوّرين أُحذّرك من ذلك، ثم بكت بشدّة: «سنتركك الآن، من اليوم فصاعدًا اِهتم لنفسك بنفسك».

كانت تلك آخر الكلمات، اِنقطع بعدها البّث، لم يصدّق بأنّهما غادرا، لقد أطلّت أشعّة الشّمس من تلك النافذة ملامسة دموعه التي أبت أن تجفّ، اِحتضن التّلفاز، قبّله، صرخ بأعلى صوت « أحبّكما إلى الأبد».

كانت هذه حقيقة والو... فقد ضحّى والداه في سبيل تمرير قوّة الختم إليه، ولم يكن هدفهما جعله يعاني بسبب تخلّي النّاس عنه...

و هو كذلك... تتنازعه أحاسيس متباينة، يُفاجأ بأصابع تلامس بحنوّ خصلات شعره البنّيةّ.

- من؟ المعلّم أودان.

- أجل، يبدو أنّك اِلتقيت بوالديك؟

- نعم.

- أظنّك أدركت سبب غيابك عن الوعي في عيد ميلادك العشرين الموافق للثّاني و العشرين فيفري و تسعة عشر و ألفين؟ لقد اِجتمع شياطين الإنس و الجنّ على أنّ (الحراك والو)، ترداد هذه العبارة حفَّز ختم الحراك القابع داخلك و حرّره من قيده.

- و لكن كيف علمت بأنّ شفرة تحرير الخَتم كانت الفونيمات : و...ا...ل...و.

- لأنّ العمّة حسناء أعطتني شِفرات الأختام الضّائعة، لقد سمّيتك والو لذلك السّبب؟

جفّت الكلمات، اِرتمى في حضنه و دموع الإمتنان تبلّل قميص رجل تبنّاه و حماه حين هجره الجميع.

- سأله أودان: أ وجدت ذلك «الحديث» ذو الرّتب العالية؟

- أجل.

- هل سَتُكمل مسيرتهما؟

- بالتّأكيد.

- فلنعد إلى العاصمة إذًا.

- كلّا، هنالك مكان يجب أن نتّجه إليه؟

- أين؟

- ذلك النّهر الذي شهد اِستشهاد والديّ، الحاوي لقَرطي التّاريخ، لقد رأيت كل شيء؟

- امممم، هذه ليست رؤيا، إنّها بمثابة اِستدعاء من النّهر؟

لم يصدّق أودان بأنّ نهر موثول اِستدعى والُو ، ليتحرّى دواخله، ويضعه في ذلك الاختبار، ويُسمعه الوصايا، وكان على دراية بأنّ تلبية نداء النّهر تحدٍّ لا رجعة عنه، فباشر وصبيّه جمع حقائبهم، اِستعدادًا للتّوجه إلى هناك.

تحدي نهر موثول.

في طريقهما، كان أودان على علم بأنّ نهر موثول الذي شهد بطولات كثيرة عبر التاريخ، لا يتجلّى إلا لجَلدْ!؟ وأنّ المنكشفين على أسراره لن يظلّوا والو أبدًا.

ركن أودان سيارته الرّباعية عند تلك التّربة الرّطبة، ومكث ثلاثة أيام يَرْقُبُ إشارة دودة الأرض حارسة المكان، تلك الدّودة التي أكل أجدادها جثث أجدادنا ذات يوم، فحملت أسرارهم وعملت على إخفاء بوّابة تجلي النّهر.

عند الاِستدراة الثّامنة للقمر فوق شمال إفريقيا، ظهرت الدّيدان بعدما أخبرها ذبال الأرض بقدومهما، ففُتحت المخاريط لعبور الوافدين في زمكنة أغشت صديقنا والو، بينما ظلّ أودان يرقب الإشراق.

في الصّبيحة، إستفاق والو على خرير مياه لا تَتَبخّر ولا تتجمَّد ، تُلامس تشكيلة خلائق ربّانية لم يُرَ لها مثيلا من قبل، وعلى الضّفة الأخرى جلس أودان يراقب طيور النّورس، نظر إلى تلك الموجة الصّغيرة تداعب بطن الصّخرة مخمّنًا: «أ يعقل ذلك؟».

تتالت الأيّام على ذلك المكان...تراخت الأرواح...و بدأت النّباتات والحيوانات المختفية بالظّهور...حينها أدرك أودان بأنّ القبول قد تمّ لفتاه، وأنّ نهر موثول الرّابط بين جبليّ الصّفح والإنتقام، الحاوي قصصًا كثيرة، سيضيف لا محالة إلى أغواره قصّة هذا الشّاب؟

على ضفّتي النّهر تنتقل الأيّام و الألوان من القتامة إلى الإنفتاح تحت ناظر القمر، ليتغيّر مجرى المياه، إيذانا بتجلّي ظاهرة عجيبة عُرفت بـ :
«شلّال النّوايا» أو كما لقّبها القدماء : «معبر الأرواح» إلى الأصل، المكان الذي قسم الأساطير، حفِظ الماضي و تراءت بين مياهه نبوءات المستقبل.
لا يهُمّه ما الذي سيحدث؟ ما يسعى إليه هو الحصول على قوّة تتيح له التّغلب على الطّقوس و الأسحار، و نبوءات معلّمه تتجلّى عنها الظِّلل يوما بعد يومٍ فبالأمس اِهتدى إلى حديث قدسيّ كان له الدّور الحاسم في معركة والده، و اليوم قد يتمكّن من إيجاد القرطين العجيبين اللّذين سيكشفان له دهاليز التّاريخ و مكائده.
شدّ والو قدميه، رفع يديه، أغمض عينيه ثم اِرتمى تحت مياه شلّال النّوايا النّاطقة، المُنهمرة على كتفيه و هنالك بدأ تحدّي الحصول على القرطين :
كانت مياه شلّال النّوايا مختلفة عن باقي مجرى النّهر، تُخفي بين جنباتها قصّة قِرطي التّاريخ اللّذين يبحث عنهما والُو ، فلِمن يعود القرطان و أين هما يا ترى؟
بضع دقائق تحت مياهه المنهمرة كانت كفيلة بأن يتّخذ شلّال النّوايا قراره، سواء بإطلاع والو عن ذلك السّر أو طرده، اِستنادًا لما يحمله قلبه تجاه البشريّة.

توقّفت المياه، تنفّس والو، سألته: أ تبحث عن قرطي التاريخ؟ أنت اِبن التّيكر إذًا، ملامحك تشبهه تماما. لكنّهما ليسا لك بل ليوغرطة؟

والُو: يوغرطة؟

مياه شلّال النّوايا: بالله عليك، لا تقل لي بأنّه شخص غير معروف؟

والُو: الحقيقة أجل، فاِسمه غير متداول.

مياه شلال النوايا: و ما الذي تعرفونه مثلا، أنت في شلّال النّوايا، تنميق هنا أو هناك و ستخسر الرّهان الذي جئت إليه؟

والُو: الكل يعرف رونالدو، ميسي، وردة شارلومونتي...

مياه شلال النّوايا: أ تسمح لي أن أخاطبك باللّهجة العاميّة ؟

والُو: لا بأس، تفضّلي.

مياه شلّال النّوايا: يا خويا يا خويا يا خويا والُو، كعرتولها باباها، حكّارين الرجال، ياوكون ماش يوغرطة مساحة بلدكم علبة زلاميث.

والُو: عذرًا أيتها المياه، هلّا قصصتِ عليّ، حكاية هذا البطل؟

اِرتفعت المياه ضاربة ضفاف النّهر، حتى أنّ أودان تشبّث من جبروتها بالصّخرة، ثم اِسترسلت في سرد قصّة يوغرطة على والو:

فبعد تقسيم السّلطة في المملكة الأمازيغيّة نوميديا بين أبناء الملك ماسينيسا، ضعفت الدّولة، و لم تعد بتلك القوّة التي كانت عليها أيّام ماسينيسا الذّي نجح في توحيدها، و جعلها قوّة تقارع روما.

ظنّ الجميع أن نوميديا ستظلّ تحت أقدام روما، لكنّ التاريخ كتب ميلاد شابّ جديد، سيحمل لواء جدّه ماسينيسا، وسيوحّد الأمازيغ من جديد.

في عام ستيّن و المئة قبل الميلاد، ولد يوغرطة اِبن (مستنبعل) اِبن (ماسينيسا) و يعني اِسمه بالأمازيغية (كبير القوم).

شبّ يوغرطة على الفروسية، واِمتازبذكاء وقّاد، لم يكن ميّالا إلى حياة التّرف، بل كثير العمل قليل الكلام، ما أكسبه اِحترام قومه.

تزداد سرعة الشّلال قوّة، فيبرز طيف شخص آخر من الماضي، تُعرّفه المياه على أنّه القنصل الرّوماني بسيرتا(قسنطينة)، سلاستيوس متحدّثا: « تمتّع يوغرطة الشّاب بجسد قويّ، وملامح جميلة، وله فوق ذلك عقل ثاقب. لم يترك نفسه تفسد بالبذخ والكسل، بل اِتّبع عادات قومه».

يتابع سلاستيوس:« كان من أوائل الذين قاتلوا الأسود والوحوش، صنع الكثير، وقلّما تحدّث عن نفسه.»

شارك يوغرطة إلى جانب روما في حصار نومانتينا بإسبانيا سنة أربع وثلاثين ومئة قبل الميلاد، حيث أرسله عمّه ميكيبسا، وفي تلك الحرب أبان عن شجاعة في القتال، وحكمةً في إسداء المشورة العسكرية، فكوّن علاقات نافذة مع أعضاء في مجلس الشّيوخ .

عندما اِقترب أجل الملك مكيبسا، اِستدعى حاشيته وألقى على مسامعهم خطابا مطوّلا بمثابة وصيّة ملكيّة، أعلن فيها تبنّيه الأمير يوغرطة، فقال:

« يوغرطة!، لقد كنت يتيم الأب ،لا مال لك ولا جاه حينما دعوتك لأن تكون وريث تاج العرش، وهذا برهان محبّتي لك مثل ولديّ»

توفّي الملك مكيبسا... أمّا يوغرطة فاستصعب فكرة بقاء نوميديا مقسّمة، وهوالذي يعلم أنّ جدّه ماسينيسا وحّد هذه البلاد، وجعلها قويّة جدًّا، وراودته الأحلام بتوحيد نوميديا من جديد، فراح يعمل بصمت من أجل تحقيق ذلك.

هاجم يوغرطة غرب نوميديا و حاكمها حفصبعل، فقتله سنة إثنتي عشر و مئة قبل الميلاد، بعدها بسنوات أزاح الموالين لروما، و إكتمل له ملك سيرتا، فأدركت روما بأنّ يوغرطة بمثابة ماسينيسا الجديد الذي سيعيد نوميديا الموحّدة.

إشتغلت سياسة يوغرطة ضدّ روما على مرحلتين: تقديم الرّشاوي لقناصلة روما في نوميديا، فكانت التّقارير التي يكتبونها عن الوضع تؤكّد لحكّام روما بأنّ نوميديا مستقرّة، في حين كان يوغرطة يكتسح المدن الواحدة تلوى الأخرى . شراؤه قناصلة روما، ورجال مجلس شيوخها، جعله يطلق مقولته الشّهيرة «روما تباع لمن يشتري».

أمّا المرحلة الثانية من المواجهة فكانت الحرب، إذ أنهك يوغرطة الرّومان في معارك أشهرها معركة هذا النّهر (نهر موثول)، ففي عام تسعة و مئة قبل الميلاد هاجم ميتيللوس حدود نوميديا، وراح يقتل أجدادكم الأبرياء، إلى أن بلغ هذا النّهر، أين أجبره الشّاب يوغرطة على الفرار إلى جنوب تونس، ما جعل روما تلجأ لأسلوب الغدر من أجل القضاء عليه.

كان يوغرطة صهر حاكم موريتانيا(المغرب حاليا) بوخوص الموالي لروما فنصب كمينا ليوغرطة، إذ دعاه من أجل التّشاور حول خطط لطرد روما من نوميديا، بينما اِتّفق «بوخوص» مع القنصل الرّوماني «غايوس ماريوس» على تسليمه يوغرطة مقابل منحه أراضٍ جديدة في نوميديا و مزايا أخرى.

اِستجاب يوغرطة لدعوة صهره، و هناك اِعتُقِل و أُسِر، و سُلِّم للقائد الرّوماني (صولا) سنة أربع و مئة قبل الميلاد . تعرّض يوغرطة لتعذيب شديد، حيث جوّعه الرّومان، قطعوا أذنيه، و أخذوا قِرطي الذّهب التّاريخية اللّذين لا يقدّران بثمن، ثم شنقوه.

اِستشهد يوغرطة من أجل الجزائر بعدما أخفى عن الرّومان قوّة ذانيك القرطين، تاركا إرثا عظيما: قرطان كاشفان للتّاريخ، و مقولته الشّهيرة التي رسمت شخصية الجزائري إلى اليوم «ننكسر و لا نركع».

عمّ الحزن أرجاء نوميديا، و أقسمت أن تُنجب لكلّ زمن يوغرطاه، مهما تغيّرت المسمّيات.

تغيّر اِسم نوميديا إلى الجزائر و روما إلى إيطاليا، و لكنّ روح يوغرطة لا زالت الحارس الأمين لهذه الجغرافيا.

شلّال النّوايا: لا شكّ في أنّ ذلك الأودان من جاء بك، أبلغه سلامنا، و أخبره بأنّ نبوءة الجنديّ المجهول قد اِقتربت. اِقضِ على الكراهية التي بداخلك و حينها سيتراءى لك قِرطا التّاريخ.

اِنصرفا الآن! فالدّيدان ستُغلق المخاريط.

اِنتهت رحلة نهر موثول، و غادر الاثنان و أسئلة كثيرة تراود والو: « القرطان؟يوغرطة؟ لم تجبني المياه عن أسئلة كثيرة...ولكنّها أرتني تواتر نضالٍ، لم تكن ثورة التّحرير منطلقه الأوّل، فلكلّ زمن ثوّاره، سأرتديهما يوما ما لأمحّص بهما كل الأحداث التي يشوبها لغط».

كان هذا، العرض الذي أراه الرّئيس لشعبه في ملعب الحراك، و في المقتطفات الأخيرة للعرض يظهر هنالك حديث صوتي بين أودان و رئيس الجمهورية الشّاب الخمري:

- إلى أين أودان؟ ألن تحضر اِحتفالات ملعب الحراك؟

أودان: موتها نذير شؤم، يجب أن أتحرّك فورا، قد آن الأوان لذلك؟

في تلك الأثناء، و بينما الرّئيس و شعبه يتبادلان تهاني الذّكرى الواحدة و الـ.... للحراك، كان أودان حافظ أسرار هذا الوطن، والشّخص الذي أنار درب الكثيرين في عوالم التّضحيات، يخوض إحدى أعظم المراحل التاريخيّة المستقبليّة لهذا الوطن.

اِنطلق أودان كالسّهم بغية كبح الأسوء القادم، وهناك عند شاطئ النّهاية، دارت أحداث المعركة الأخيرة التي اِستشهد فيها مؤسّس فرقة الأختام.

- إذًا أنت أودان الذي عُرف بحبه للسّلام، لم تحضر اِحتفالاتكم التّافهة ؟ سنجتثك لتندثر معك هذه الكلمة.

- من أنتم بالتّحديد؟ وما الذي تفعلونه هنا؟

- لا يهمّ، فذلك لن يغيّر من الأمر شيئا.

- أيّها الملثّم، صوتك مألوف بالنّسبة إليّ!.

- لا داعي للتّخمين، لم نلتقِ من قبل.

- إن كان ذلك صحيحا فلمَ الأقنعة؟

- إنّها تقاليد منظمتنا.

- منظّمتكم؟

- أجل، منظّمتنا التي تسعى لنشر الدّيمقراطية في العالم.

- أتنشرون الدّيمقراطية بالأقنعة؟

- لا بأس، فقد كنت معلّمي ذات يوم ...

أودان: لا يصدّق بأنّك تنتمي إلى المنظّمة، لهذا السّبب إذا عجزنا عن إيجادك...بلمختار.

بلمختار: الزّيت و السّكر، لقد أجبرتم أمّي على إبادة عائلتها بأكملها، لتجهضوا تلك المسيرات، إنّها الحقيقة.

أودان: اِختارت رينات ذلك بمحض إرادتها بعدما اكتشفت أنّ ...

بلمختار: كانت أمي السّكّين التي أدّى تلك المهمّة القذرة، ومن أجل الاِنتقام منهاسعيتُ لأن أصبح أقوى، فمزّقت روابطي وسافرت في أنفاق الظّلام.

أودان: أنت تجهل الكثيرعن تلك الحادثة، أمّك كانت ...

بلمختار: لا تتظاهر بمعرفة كلّ شيء، سأقتلك أودان.

وفجأة برز ذلك الشّخص المقنّع مخاطبا بلمختار :

اِهدأ بلمختار، إتّفاقنا كان واضحًا، سنعينك على تدميرهذه الأمّة، والإنتقام من هذه الدّولة التي أرغمت أمّك على اِقتراف تلك المجزرة، شريطة أن يكون جسدك وعاء لهالة الكراهية التي سنجبربها أختام النّضال على الظّهور.

وهكذا خاض أودان قتاله الأخيرضدّ أفراد تلك المنظّمة، فألحق بهم أضرارا جسيمة، كما لم يصدّق السّلام بأنّ إصابة عرّابه قاتلة، ذلك الذي سعى دائما لتحقيقه، لقد أعادت له سكرات موته سيرة حياته مكتشفا في الأخير هويّة طفل النّبوءة :

« بالعودة إلى الوراء فحياتي لا شيء سوى حالات الفشل، لم أستطع إنقاذ تلميذي(التّيكر) ولا فرقتي، إذا قارنت أعمالي العظيمة مع ما قام به الشّهداء فهي تعدّ أشياء تافهة، القصّة الجيّدة تكون بمجرى أحداثها النّهائية، حالات الفشل يجب أن ترى كمجرّد تفاهات، عشت أعتقد بذلك، وبالمقابل أقسم أنّني سأنجز شيئا عظيما، سيمحو كل حالات فشلي، وسأموت كمناضل رائع، على الأقل اِفترضت بأنّ الأمور ستسيرعلى هذه الشّاكلة، ولكن مع اِعوجاج قصّتي فحكايتي ستنتهي هكذا...

لقد تنبّأ الجندي المجهول بأنّني سأوجّه ذلك الثّوري الذي سيقوم باختبار عظيم، الشّخص الذي سيجلب للعالم اِستقرارا كبيرا، اِعتقدت بأنّني سأدحض الكراهية، و أوقف زحف المنظّمة السّرية، ولكنّني أخفقت مرّة أخرى، وسأنتهي كشخص تافه».

ولكنّ ذلك ليس صحيحا فسكرات الموت أعادت له أيضا كلمات التّيكر: «معلّمي، فخامة والوكتاب رائع، بطله يشبهك تماما فأنت مناضل كبير يمتلك مواهب حقيقيّة، كلما تذكّرت بطل روايتك تمنّيت أن يغدو اِبني الذي أترقّب قدومه شبيها به ، لذا أستأذنك بأن أمنحه اِسم الشّخصية الرّئيسية».

ولأجل نقل حقيقة هذه المنظّمة إلى الأجيال، وثب أودان رغم إصابته البليغة، وخاطب أفراد تلك المنظّمة: « الجزائري هو الذي إذا عزم أتمّ ولم يقل كدت وليتني، دعوني أخبركم بشيء، السّمة المهمّة في الجزائري ليست تعدّد العرقيات ولا الثروات التي أسالت لعابكم، بل الشّجاعة التي تجعله لا يستسلم، أيّها الوالو إن كان هذا طريقك كمعلمك فسأدع لك شيئا، ليعلم الجميع بأنّ الأجيال القادمة سترث سُبل النّضال من معلّمها، أليس كذلك ...؟»

ثم قرّر اِتخاذ القرار الحرج الذي حدّثته عنه النّبوءة سالفا، وحينها خاطبه السّلام :

« أودان، جروحك عميقة، لا يزال بوسعنا الاِنسحاب، يمكنني مساعدتك».

أودان: ذلك الشّخص المقنّع بالكاد تمكّنت من خدشه، يجب أن أنقل للباقين حقيقته، اِستعدّ لتغادرني أيّها السّلام، أأتمنك على نقل الأختام إلى والو.

السّلام : قرّرتَ إذاً منحه الأختام!

أودان: حتّى و إن تكُ حركتي التّالية هي الأخيرة، فأبداً لن أخون هذا الوطن ولن أستسلم...كان ذلك القرار الحقيقي الذي سأتّخذه.

إئتمن أودان السّلام على نقل أختام النّضال المخفيّة لديه لسنين طويلة، تاركا مهمّة إيقاظها بين يدي والُو و شعبه، و غادر مع أمواج البحر مبتسما، بعدما تيقّن بأنّ تلميذه الصّغير ليس كوالُو الذي تحدث عنه في روايته وحسب، بل ورِث آمال الأمم السّاعية للسّلام ، فغادروهو متأكد بأنّه طفل النّبوءة.

و بينما الملايين داخل الملعب و خارجه تتسامى مشاعرهم بالصّمت، بالبكاء، الفخر و الإعتزاز بأبطال هذه الأمّة عبر كل الأزمنة التّاريخية «يوغرطة،كسيلة، الكاهنة،عبد القادر، عبد الحميد بن باديس، علي لابوانث، العربي بن مهيدي،زبانة، الهوّاري وعن الصّبي الذي نبذوه يوما ما»، كان السّلام قد بلغ المنصّة الشّرفية...

نور بدّد ظلمات الإستاد ...

لامس ضياءه جلّ الشعب...

فكان مشهدا لافتا...و النّسمات العليلة تداعب ذلك المعطف الأسطوري الذي حمله إليه السّلام .

وقف الجميع و قلوبهم رحّالة إلى ذلك الشّاب، بعدما تيقّنوا بأنّ رئيسهم، ذاته والُو ابن الهّواري، تلميذ أودان ملك النّضال.

لقد مَثّل أودان، عميد الشّرطة، مدير الملجأ بالنّسبة لوالُو عائلته الحقيقية، وقد لُقِّبت دموعه في الإستاد يومها بدموع «ملعب الحراك»، فبكى بشدّة وأنّب نفسه متنهّدا: «أردت منه أن يراقبني باستمرار، كنت أتمنّى أن يظلّ معنا و أن يشاهد طفل القمامة الذي آمن به، ولكن اِنتهى بي الأمر لأتركه يواجه الكباليين منفردا » .

وقبل أن يُتمّ كلامه خاطبه السّلام:« كان أودان يمتدحك بشكل دائم ويفتخر بك، بل ويعتني بك كما لو كنت حفيده، وظلّ يؤمن بأنّك سترث عزيمته، سيأتي اليوم الذي ستقود فيه البشريّة إلى إنجاز عظيم وستتفوّق على جميع القادة الذين سبقوك، أودان سيراقبك من مكان ما، ولن يكون سعيدا إن رآك حزينا على هذا الحال، تصرّف باعتياديّة، كن ذلك الذي ظلّ يفتخر به، لا تبق مُحبطا على فراقه، فقد اِعترف بك على أن تكون تلميذه الواعد. لا تنسَ أنّ العالم في خطر فأخبر شعبك الحقيقة قبل أن نغادر» :

** قوّة يمنحها الله، تنتظر النّزول فإمّا أن تُرَدَّ المظالم ليؤذن لها بالتّجلي، أو تقام على أجسادنا تلك الطّقوس الشّنيعة؟

غادر الرّئيس الشّاب الملعب بعدما وضع شعبه بين اِختيارين ، ليتّخذ كلّ فرد قراره بنفسه.

فهل سيعيد أولئك الشّباب والشّابات الذين طعنوا في شرف نسوة بالغيب، وأقعدوهنّ عوانس المظالم لأهلها، ويقرّون أمام الملأ بخطيئتهم؟

هل سيتوقّف القيل والقال، وتَحُلّ محلهما الأفعال، أم أنّ النّميمة ستظل الحرفة الحميمة؟

هل ... هل ...هل... و ...هل ؟

وفي اِنتظار الأجوبة، دوّت صفّارات الإنذار تُخوم الدّول المطلة على السّاحل، إنّها ليست حربا عاديّة، قد تكون الأخيرة لهذا الكوكب.

في طريقهما إلى قصر الرّئاسة، أسرّ له السّلام : «دود الأرض يحييك سيدي» سأله: «دود الأرض؟ ما الذي يفعله هنا» فأجابه: «نحن فوق نهر موثول، بالتّحديد في المكان المسمّى بشاطئ النهاية، يجب أن ننزل لإسترجاع قرطي يوغرطة، لألّا أنسى، تفقّد إحدى جيوب المعطف ستجد قصاصة ورقيّة لك.

أدخل والويده واِستخرج قصاصة حملت الآتي: «من خلال معرفتي بك، أعلم أنّك ستندفع بطيش إلى ساحة المعركة، هذا هو مدى إصرارك، إن كنت تقرأ هذه الملاحظة؟ فمعنى ذلك أنّك لم تعد والو، ذلك ما سعيتَ إليه، فمذ أن أمرني ذلك الحلم بأن أرعاك، كنت قد أخفيت اِسمك الحقيقي عن القرّاء في تلك الرّواية غير المكتملة،(فخامة والو) كي لا يهتدي إليك أعداؤك، لا أعلم إن كنت قد أصبتُ أو أخفقت في ذلك؟ ولكن هناك شيء أنت بحاجة لمعرفته: اِسمك الحقيقي «يوغرطة »، لذا جلّ ما أستطيع قوله (كن كيوغرطة الماسيلي بحق) » توقيع معلّمك أودان الذي أحبّك كثيرا...

لم يصدّق والو بأنّه يوغرطة الثّالث الذي تلا يوغرطة الثّاني (والو الثّورة التحريرية)... يبدو أنّ كلّ من ينادي شخصا أو أمّة بوالو مستعمر للأحلام منذ البداية، ولا شكّ بأنّ ذلك الوالو سينتصر في النّهاية.

نزل الإثنان إلى ذلك الشّاطئ، و السّلام على ثقة بأنّ الكراهية ستأتي ببلمختار مرّة ثانية إلى هذا المكان الذي شهد إستشهاد معلّمهما، و الذي سيحدّد مصيرهما و العالم.

ولكنّها لم تتوقف، تلك الدّموع التي ذرفها يوغرطة عند ملعب الحراك، لقد إغتيل أودان ومقبلة هي الحرب العالمية العظمى، ليس هذا وحسب ففي الجانب الآخر يوجد أعزّ أصدقائه.

تذكّر نوبات الصّرع التي كانت تنتابه و المجهودات الكثيفة التي بذلها بلمختار لدمجه في المجتمع، لقد كان بمثابة شقيقه ، تداخلت الأحداث من هنا و هناك...« أ لن تعود للمنزل بلمختار؟» .

وفجأة تسارعت نبضات قلبه مُلقية به فوق رمال تحسّست حزنه العميق، لم يكن بلمختار الشّخص الوحيد الذي فقد عائلته، أعادت له نسمات البحر الجنازة الرّهيبة المهيبة التي ساقت والداه إلى مثواهما الأخير.

يومها قُرعت الطّبول إحتفاءً بانتهاء العشريّة السّوداء، شهد الجميع بأنّ لوالديه دورا كبيرا في إخمادها، ليغادرا الحياة تاركين إيّاه وسط شعب تجاهله تماما، بل وعامله كوالو، فقد قيل عنه الكثير، ووُصِف بالمنبوذ.

توقّفت تلك السّيارة السّوداء عند ذلك المنزل الحزين، وولجه أودان ليجده فزعاً مُرتعدًا عند زاوية علت جدرانها بدلة والده، ذلك التّيكر الذي أدرك بأنّ المنظّمة ستعود يوما ما، وأن السّبيل لِلَجم قوّتها يكمن في هذا الصّبي.

والو، هو يوغرطة اليوم ، لقد عانى كثيرا ولكنّ حادثة رينات ومجيء بلمختار ليقاسمه العيش، غيّرا كلّ شيء في حياته. ذلك اليوم الذي توقّفت فيه سيارة الشّرطة...تلك الأمتعة... ذلك المشهد...كلاهما لم يكُن غريبًا عنه، إنّه وافد جديد في مثل سنّه.لقد كان سعيدًا لأنّه سيحظى برفيق، لكنّ بلمختار كان مُختلفًا تماما، لقد قرَّر العيش من أجل الإنتقام.

وعند حادثة الهاتف التي تلت موقعة الطّاولة:

رنّ الهاتف طالبا المعلم أودان، كان المتّصل «رينات الجزائريّة» و المجيب بلمختار، لم يصدّق ما حدث:

رينات: لقد مضى وقت طويل بنيّ.

بلمختار: رينات الجزائريّة؟

يومها أدرك بلمختار بأنّ الشّخص الذي لطالما سعى للإنتقام منه على اِ تّصال بمعلّمه أودان، كلماته تلك لا زالت عالقة في ذهنه: « لا يمكنني العيش رفقة أودان، لقد آلمني حقّا تواصله مع تلك المجرمة التي حرمتني كلّ شيء ».

...هبّت نسمة تحمل معها حديثا دار بينه وبين أودان،فقد كان صغيرًا على فهم مشاعر صديقه ، لذا سأل معلّمه:

« أخبرني بلمختار بأنّه سيقطع الرّابطة التي بيني وبينه كي يصبح أقوى، وقال أيضا بأنّني لن أفهم شعوره أبدًا؟ فما الذّي يعنيه بذلك؟ لقد كنتَ صديقا للعمّة رينات منذ زمن، فلِمَ تغيّرت هي الأخرى و أصبحت مجرمة؟ ».

أودان : اااام ، أولئك الذين أحبّوا بصدق يمكنهم اِستيعاب القوّة النّاجمة عن كسر الرّوابط و الخواطر.

ما عساني أقول ؟ فلم أشهد لك علاقة عاطفية رفقة إحداهن من قبل، و لكنّ الشّيء الأكيد أن الرّجل إذا عشق اِمرأة و خانته فسيمحو كل العواطف البريئة من قلبه، تلك العواطف التي تضعف الاِنسان في الكثير من معاملاته، لا شكّ في أنّه أراد أن يقطع علاقته بك، كي لا يُبقِي في فؤاده مكانا للرّحمة.

أمّا ريناث فقد تغيرت كثيرا منذ اِنفصالها عن فرقة الأختام السّتة، ربّما لأسباب لا يعرفها سواها؟ ولكن يمكنني رؤية الكراهية واللامبالاة تنتشران في ربوع هذا الوطن الشّاسع، لقد أردت أن أفعل شيئا حيال ذلك، ولكنّني لست متأكّدا ممّا يجب عليّ القيام به، و بالمقابل أومن بأنّه سيأتي اليوم الذي سيفهم فيه النّاس بعضهم البعض.

** اليوم يوغرطة يمكنه فهم بلمختار فأودان بمثابة عائلته ولا يمكنه التفريط فيه، لذا عندما بلغه نبأ اِستشهاده، أدرك ما كان يتحدّث عنه صديقه حول فقدان الرّابطة.

وبينما هما كذلك عند شاطئ النّهاية :

السّلام : إنّهما قادمان، بلمختاروذلك الشّخص المقنّع، فلنستعد.

قال الشّخص الغامض ليوغرطة: أووه، أصبحت يافعا؟ لم أرك منذ أن كنت رضيعا في تلك الحادثة، الشّخص الوحيد الذي أكنّ له الإحترام هو والدك، فقد تمكّن من إصابتي ونجح في فصل هالة الكراهية عنّي.

يوغرطة: بلمختار، قد اِغتلت رينات الجزائريّة، تلك كانت غايتك فما الذي تسعى إليه الآن؟ ألا تجد لك ذكريات جميلة في هذا الوطن؟

بلمختار : مهما قلت فلن تغيّر موقفي، سوف أبيد كلّ شخص بمن فيهم أنت، و سأحصل على الاِنتقام من أجل عائلتي.

يوغرطة: إليك الحقيقة إذًا.

بلمختار: الحقيقة؟

يوغرطة: أنت في شاطئ النّهاية، إحدى قطع نهر موثول، سيريك شلّال النّوايا ذكريات تلك الواقعة.

بلمختار : ...! كأنّها ذكريات والدتي رفقة أودان؟

الذّكريات:

رينات: يبدو أنّنا لن نتمكّن من إيقاف الإنقلاب، لقد تمّ إكتشاف موقع ختم الإنقضاض.

أودان: على رسلك.

رينات: لوسيفر لا يثق بي، لقد أخبرهم بذلك.

أودان : يجب أن نجد حلا وسطا.

رينات: ليس هنالك متّسع من الوقت، الإنقلاب سيقع منتصف هذه اللّيلة.

** و هكذا طلبت رينات من أودان مساعدتها في فكّ التّعاويذ المحيطة بمنزلها و إقتحام تلك الجلسة الشّيطانية، من أجل توراة موسى و إنجيل عيسى و الجزائر قبل كلّ شيء.

بعدها تُظهر مياه الشّلال أودان في منزل رينات مصوّبا مسدّسه في رأس زوجها.

والد بلمختار: لا أحبّ لمسيحيّ أن يقتلني أودان، أعي أنّها برفقتك، دع لها ذلك!.

تراجع أودان...تقدّمت من خلف السّتار...أخرجت مسدّسها... إرتعدت، و زوجها و أبناؤها على ركبهم جاثمين، مقيَّدة أطرافهم.

والد بلمختار: رينات، لقد إخترتِ الجانب الآخر إذًا؟ يدك ترتعش، لا تقسِ على نفسك فقد كنّا بصدد إغتيالك و بلمختار، فارق التّوقيت جعلك تسبقيننا لا أكثر، فلا تتراجعي.

اِبنها الأكبر: ليس هنالك وقت للحديث أمّاه، أجهزي علينا قبل أن يدركك لوسيفر.

اِبنها الأوسط: أسرعي قبل أن يستيقظ بلمختار.

** بكت بشدة و طلقات المسدّس تغادره مخترقة أجساد عائلتها، عائلة أقسمت للوسيفر بتدمير هذا الوطن. ..رينات الجزائرية، لقد كانت حياتها كلّها تضحيات وتنازلات من أجل هذا الوطن، ليس من أجله وحسب، بل من أجل اِبنها الأصغر أيضا، أرادت الموت كمجرمة وخائنة، قبلت بالعار مقابل الشّرف، بتشويه صورتها، وبالكراهية مقابل الحب، وعلى الرغم من ذلك توفّيت مبتسمة على يد اِبنها الأصغر.

يوغرطة: تلك العائلة التي لطالما تغنّيت بها لم تأبه بك يوما، بل آثرت اِجتثاثك من خلال لفّك بحزام ناسف وتفجيرك وسط مسيرات الحادي عشرة و ألفين للميلاد، ثُم تدويل القضية على اِعتبارك و عائلتك من الأقليّات، أصرّ والدك على تقديمك قربانا ليحظى برضى عبدة الشّياطين المنطويين تحت لواء ذلك الرّجل الجالس إلى جانبك، ولكنّ والدتك رفضت ذلك وحذّرت الجميع بمن فيهم والدك، أخاك وعمّك، بردة فعل عنيفة إن أصبت بمكروه.

رينات الجزائرية، اِغتالت زوجها، أباها وعمّها ولكنّها لم تستطع اِغتيال اِبنها الأصغر، وفي المقابل لم يأخذ أفراد عائلتها تهديداتها على محمل الجدّ. بلمختار: وكأنّني سأصدّقك، أمّي وبال، أبادت عائلتها واِلتحقت هي الأخرى بمنظمة الكابالا.

يوغرطة: لأجلك أنت، كلّ ذلك كان من أجلك.

ويصعق بلمختار، ثم:

يوغرطة: يقينا منها بأنّ رعاية أودان لك، لن يثني أتباع لوسيفر عن ملاحقتك، مادامت عبقريّتك في حلّ شيفرات الكتابات القديمة سمحت لك بالتواصل مع الفيروسات، و جعلت منك قاب قوسين أو أدنى من كشف ماهية مورثات هالة الكراهية، فقرّرتْ الاِنضمام إلى تلك المنظّمة الشّيطانية لتراقب من داخلها التحرّكات التي كانت تستهدفك.

ارتعد بلمختار وأمسك برأسه: صه، أكاذيب، أجل أكاذيب، كانت تسعى لنيل رضا رؤسائها.

يوغرطة: صدّق أولا تصدّق، المهِمّ أنك لا تزال على قيد الحياة والفضل يعود لها، أتعلم لِمَ؟ لأنّها عهدت لك باسم بلمختار لتكون أجمل اِختيار لهذا الوطن.

** بلمختار، طفولة شهد لعبقريتها الجميع، ذلك الطّفل اِستطاع في سنّ مبكّرة اِستيعاب ما عجز عنه علماء متمرّسون في علم الأجنّة و الخلايا، فقد كان متفوّقا في كلّ شيء، تجسّس والده على قدراته العجيبة في فكّ شفرات الكتب القديمة دون اللّجوء إلى الطّقوس، و قرّر نقله إلى فرنسا

لدعم المنظّمة السّرية، ولما أجهضت والدته ذلك، أمر لوسيفر بتصفيته، خشية تمكّن رينات من الاستعانة به في الكشف عن نقاط ضعف كتب الكابالا وجينات هالة الكراهية، وهي التي كانت أحد أعضاء فرقة الأختام.

تيقّنت أمّه بأنّ والده مصمّم على تلبية أوامر المنظّمة، كما تراءى لها بوضوح محاولاته تحييد مسيرات الزّيت والسّكر عن جادتها، والتّحريض على اِنقلابٍ رفقة الوفود التي شدّت رحالها إلى الجزائر، وكانت تعي بأنّ مهمّتها السّرية قد اِقتربت، فاستأمنت أودان على صبيّها وغادرت الوطن بعد اِنتهائها من أداء تلك المهمّة التي جنّبت وطنها مجازر بالملايين.

في أحضان أودان ترعرع بلمختار، أين أخبر صديقه يوغرطة أنّه مجبر على البحث عن قوّة أخرى، حينها تجادلا مطوّلا...، لينهي ذلك النقاش بسرّ اِستحالة نسيانه لتلك المجزرة.

يوغرطة: في الحقيقة، لا يمكن أن نصبح قرية واحدة كما تسعى إليه المنظّمة التّي أبادت عائلتك، هم من صنعوا لك ذلك الأب الحنون كي تمنحه روحك فداء لأطماعهم، أروك أمّا خائنة رغم تضحياتها، لقد عهد لي أبي بإسم يوغرطة وعهدت لك أمّك بإسم بلمختار أمانة في أعناقنا، لنخوض ضدّ المنظمة الإرهابية العالمية التي لم تحترم لا اليهودية ولا المسيحية ولا الإسلام، إحدى أعظم فصول النّضال.

وفي خضمّ جدالهما برز ذلك التّتابع من أصدقاء طفولتهما منادين بإندماج يوغرطة وبلمختار بغية إحياء ملحمة الماضي.

نظريوغرطة صوب بلمختار، تذكّرا تلك « البروفا»، ذلك اللّباس الطّفولي على الرّكح، تلك الأغنية التي شذيا بها لأجل بلاد النّور، فانطلقا سويا كالبرق اِمتداد شاطئ النّهاية.

« لا تزال هنالك فرصة بلمختار، فرصة يمكنها أن تعكس حالنا».

** شخصيّة عميقة كبلمختار لا يجب أن تنسى، وستظلّ عالقة في الأذهان. لقد فقد عائلته مبكّرا وأصبح وحيدًا تماما، مقابل اِستقرار هذا الوطن، لا يمكننا إلقاء اللّوم عليه مجدّدا، لقد أخبر صديقه أنّه لن ينسى تضحيات الشّهداء ووالدته من أجل تأمين السّلام لهذا الوطن، وأنه سيفعل كلّ ما بوسعه ليستمرّ ذلك، الشّيء الحقيقي والأكيد أنّه ضحيّة دين ممسوس، والد مهووس وقسوة مجتمع.

هبّ بلمختار والموج يرسم لوحات عن حبّ والدته له وتضحياتها من أجل السّلام لهذا الوطن، تذكّر منزلهم المحادي لتلك البحيرة وأولى أيّامه الدّراسية :

بلمختار: أمّي، جلّ الأولياء يوصلون أبنائهم، فهلّا ذهبت معي إلى المدرسة؟

رينات: كنت آمل ذلك، ولكنّني كُلّفت بمهمّة ستبدأ غدًا.

والد بلمختار: اممم، أصبحتِ مشغولة كثيرا هذه الأيام.

رينات: آسفة بنيّ، حتى وإن اِستعصت عليك الأحداث القادمة، تذكّر بأنّني سأكون دائما هنالك من أجلك.

أجل فقد حَيَتْ لأجله، لذا قرّر بلمختار الذّود عن وطن أمّه مُمَزّقا جسده، مطلقا العنان لملايين الفيروسات القابعة داخله لتفتك بالمقنع و أتباعه، لقد أهدى لها من قبل أنشودة بلاد النور، و اليوم يهديها روحه.

و في محاولة متأخّرة من يوغرطة لإنقاذ صديقه.

بلمختار : لا تجهد نفسك، فلا أظنّ أنّ بإمكاني النّجاة فجانبي الأيمن سُحق تماما، بالكاد أشعر به. آه، تذكّرت فقد كنتُ الشّخص الوحيد الذي لم يجلب لك هديّة بمناسبة عيد ميلادك الثّاني عشر، و قد تساءلتُ مرارا عن الشّيء الذي يليق بك، لا تقلق فلست صديقا عديم النّفع ، سأهديك هذا الختم النّضالي الخارق، و مهما أوّل ذلك، فأنت حقا مناضل عظيم، هذا شعوري بصدق، لذا أرجو أن تقبله... ثم نادى السّلام: «أيها السّلام اِستخدم تقنياتك من أجل نقل الختم و اِزرعه في أعماق يوغرطة ».

السّلام : ختم رينات؟

وهكذا تقدّم يوغرطة تُبلّله أحزان الماضي و الحاضر.

بلمختار: أنا على وشك الموت، لكنّني سأتابعك من الأعماق. أخبر الأمم المؤمنة بالسّلام، السّاعية لإحلاله بأنّني لن أشاقق معلّمي أودان بعد اليوم، سآخذ معي قصاصة الذّاكرة التي يخفي فيها مؤسّس الفايس بوك «مارك زوكربيرغ» رسائل الكراهية و الصّور الفاضحة المتداولة بين الكثيرين، فلا تلتفتوا لذلك ... هيّا أيّها السّلام، خذ يوغرطة و غادرا فإمدادات العدّو قادمة.

وهكذا ودّع يوغرطة أعزّ أصدقائه في اليوم الذي إستردّه فيه، وفي شاطئ النّهاية الذي وارى جثمان معلّمهما أيضا... وكلمات بلمختار الأخيرة :

« في اليوم الذي عادت فيه صداقتنا إلى سابق عهدها، لم أتمكّن من إخبار السّلام بأنّني سعيت جاهدا لإحلاله رغم أنّ ذلك تمّ بصورة خاطئة، تمنّيت لو أنّني أمضيت معهما مزيدا من الوقت. سامحني أودان، سامحني معلمي سأنحني إلى جوارك وسأكمل لك الحكاية من شاطئ النّهاية، على أن تكون خاتمتها سعيدة...أووه، لأوّل مرّة أحسّ بدفء ما؟ منذ تلك الفاجعة، جيّد أنّ هذه التربة قبلت إحتضاني كفرد من عائلتها رغم كل ما إقترفته، ربّما لأنّها بلاد النّور؟».

السّلام : فلنسرع، قد إندلعت الحرب.

وهكذا إنطلقا كالسّهم، وبين الشّجر ، الجنّ والبشر ، اليابس والسّائل، تهامست العناصر فيما بينها عن هوّية طفل النبوءة مفتتحة ذلك بأنّه: وبفضل إقترانه من عائلة «دال المختفية»، تعلّم هوّاري التّيكر أساليب الختم والتّقليص، كما أنّ إنتماءه لسلالة تمتدّ إلى ذلك الطّاهر الأمين، جعل من إلمامه بخصائص الأختام سابقة بحدّ ذاتها، إتقان الختم وإمتلاك الأختام، لا يوجد أكثر من ذلك صدفة، فهما القوّتان الوحيدتان القادرتان على محاصرة الشّر وترويضه، كما أنّ السّلام أخبرنا بأنّ التّيكر قد قاتل رجلا مقنّعا، وأدرك حينها أمرين إثنين: الأوّل أنّ ذلك الرّجل سيتسبّب بكارثة ما في المستقبل، وأنّ المنقذ سيكون الشّخص القادر على فهم التاريخ ومكائده والحصول على قوّة يمنحها الله، قوّة لا تضاهيها قوة.

لهذا السّبب إذًا، أرخت رينات الجزائرية دفاعها أمام بلمختار فاستشهادها بتلك السّهولة دليل على خلوّ جسدها من الختم، أ يعقل أنّها منحته إيّاه عند ولادته؟

تبًّا ولكنّه قدر مدهش، فبلمختار ويوغرطة نشآ سويا، أ يعقل أنّ الثّنائي أودان ورينات كانا على علم بما سيحدث؟ لذا تعمدّا جمعهما سويّا، كي تظلّ الأختام على مقربة من بعضها البعض... ختم الِانقضاض القابع في أعماق بلمختار، أ كان ذلك هدف الحاخام كوهين، والغاية من اِرسال باروش للبحث عن «باء»؟ الذي قصد به بلمختار، كنّا على يقين بأنّها اِمرأة عظيمة.

ولهذا أيضا، كان هوّاري التيكر تلميذ أودان، إتقان ختم الصّفات الحميدة في قلوب البشر، إضافة إلى اِحتواء أودان هالة السّلام، أ كانا يسعيان لجعل السّلام على مقربة من يوغرطة كي يرشده في المستقبل إلى سبيلٍ لتحقيقه؟ لهذا السّبب حدث كلّ ذلك ، إنّهما حقّا رجلان لا يُقدمان على الأمور لمجرد الحدس، ممّا يدلّ على أنّ الِاتكال على القوّة لم يصرف عنهما حسن التّدبير.

اِستشهد يوغرطة الأول، مانحا هذا الوطن جغرافيا شاسعة مزّقها الرّومان ووحّدها هو، تاركًا حلقتي أذن شهدتا تاريخا مشرّفا لبلد أشرف، واِستشهد التّيكر سُنّة أجداده، مانحا الوجود أختام نضال لا تقدّر بثمن، أختام لا تنتفض دون رضى الواحد الأحد.

الوالد و الإبن ؟ كلاهما تلميذا أودان، لا جدال في أنّ هوّاري التّيكر طفل النّبوءة الذي لازال حيّا في أعماق إبنه.

إندلعت الحرب العالمية العظمى، ودُمّر ثلثا العالم، وعند ذلك النّهر، برز جيلٌ أوقف الحرب وأرغمها على التّراجع، والذي قاد العالم الموحّد بالله إلى الإنتصار كان أحد تلاميذ أودان.

وفي مشهد مؤثّر، فَتَحَتْ قوّات التّحالف المجال ليوغرطة حتى يتقدّم الجماهير، إلّا أنّه رفض ذلك و إلتفت قائلا:«قدّموها أوّلا» وكان يقصد نعش رينات، وهكذا تقدّم حملة النّعش في منظر مهيب.

★★★★★

الحرب العالمية العظمى، و بسبب تضحيات العديد من المناضلين و المناضلات المجهولين، أضاءت أنوار السّلام الشّامل، و صنعت لنا أبطالا و بطولات، و قصصا عن عظماء ما فتأت تروى إلى يومنا هذا و ستظلّ كذلك تعاقب الأجيال.

المعركة في نهر موثول الثانية، وفي ذلك اليوم ولد لنا بطلان إثنان، أحدهما يدعى (بلمختار) وجدنا إسمه محفورا على صخر تذكاريّ و الآخر لُقِّب بيوغرطة، ومع مرور الوقت إنتشرت قصّة شجاعتهما.

لقد قال بأنّه لا يحتاج إلى قبر، لكن من الأفضل أن يحصل على ذلك، لأنّ النّاس بحاجة لشيء كهذا حتى يلتفّوا من حوله، لقد مضى وقت طويل، طويل جدًّا، كلمات ردّدها يوغرطة العالمي، وقف هناك وحنين الماضي ممزوج بإنجازات المستقبل:

« كما تمنّيتَ غدوتُ معلّمي، حتى و إن أخذ الموج جسدك، فإنّي أراك دائما في نصب كلِّ جندي مجهول» و هو كذلك، تشدّه إبنته الصّغيرة من سرواله، فيدنو منها:

- ما بك رينات؟

- أبي، أنا سعيدة بحملي هذا الاسم الرّائع، فكيف تبادر إلى ذهنك؟

- لِم تودّين معرفة ذلك؟

- اممم أبي، أخبرني أخي الأكبر بأنّك كنت من عشاق أغاني فنّانة يهوديّة تُدعى رينات الوهرانيّة، فهل ذلك صحيح؟

- لا بأس قد تتشابه الأسماء! ولكن رينات أو العميل «فاي» قصّة طويلة، قد أقصّها عليك يوما ما، ثم تنهّد : « لقد أصبحت ضيّقا أيّها المشاغب».

نظرت إليه رينات الصغيرة:

- أبي!، كلّما جئنا لزيارة هذا القبر الشّامخ، إلّا و أخرجت هذا الحذاء البلاستيكي، ثم نظرت إلى قدميك؟

- تقصدين سوبارفوحا؟

- أجل.

- «أسئلتها كثيرة و محرجة، كيف أتخلّص من هذه الفضولية؟». رينات، رينات... أووه لقد نامت، دون أن تنتظر الأجوبة، ياله من جيل متعب.

اِبتسم يوغرطة، و أمل كبير يحذوه للحفاظ على السّلام مخاطبا من في القبر: « هي لا تدري بأنّ هذا الحذاء البلاستيكي يذكّرني بإبتسامتك الأولى... فهمت يبدو أنّك اِمتلكت واحدا مثله، في الواقع هو حذاء يشيخ و لا يتمزّق، و بالإمكان الوثوق به. خلاف أولئك المتنطّعين بفكر الغال... لقد تحقّقت النبوءة، و قد صدقت حين كنت تردّد دائما بأنّ «العصابة أفكار قبل أن تكون أفرادًا، أفكار يحتضنها أشرارٌ، فيالك من رجل!».

ثم اِنحنى، قَبّلَ النّصب التّذكاري لمعلّمه و الرّواية بيده: صحيح أنّها لم تُصبح عملا سنيمائيّا كما تمنّيتَ، ربّما لأنّ الواقع رفض تسليمها لغيره، لم تحاول قطُّ تنصيري، ولم تُسلّم أختام النّضال في معركتك الأخيرة ولم تستسلم، فمن أيّ معدن أنت؟...

معلّمي لقد اِكتملتْ روايتك كما تمنيت، و قبل أن أغادر هذا القبو، أستسمحك كي أضع على قبرك الافتراضي كتابك الرّائع الكامل(فخامة الشّعب)، معلّمي لقد أحللنا السّلام، شاهد فقط.

...أمّا هناك في ذلك المكان المظلم:

الملحق الثّقافي: الرّئيس رفقة ابنته من دون حرس، داخل غرفة الضّريح.

فريق الاغتيال: قوّة المتفجّرات التي قمنا بزرعها كفيلة بتحويله إلى غبار.

السّفير: سنوات مرّت على جلسة الإستاد تلك؟نحن أيضا سنكمل قصّتنا، معلّمي لوسيفر شاهد فقط.

هل سيتمكّن الأعداء من اِزهاق روح الرّئيس و إيقاف حلم الشّعب ؟ أم أنّ ظهور ذلك العميل الغامض«واي» حنطي البشرة سيـ ؟

هذا ما سنعرفه في الجزء الثاني من رواية«سوبارفوحا».

تقي الدّين بوسكين

القناة الثقافية على اليوتوب: خباط فكايرو dz

takibs47@gmail.com

الصفحة على الفايسبوك: أصدقاء المؤلف تقي الدين بوسكين

وإلى ذلك الحين، يجب عليك أيها القارئ العثور أو استرداد أعز أصدقائك، وإن بدا ذلك صعبا، أليس كذلك.

والو و بلمختار